ابن قتيبة

د. مجدي إبراهيم

٢٠١٢

الكتـــــــــاب : ابن قتيبة / د. مجدى إبراهيم

المــــــــــؤلف: إبراهيم، مجدي

النـــــــــــوع: علوم اللغة العربية

تصميم الغلاف: شيماء رضوان

الطبـــــــــعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١٢ – نشر إليكتروني

عدد الصفحات: ١٠٨ صفحة

المقـــــــــاس: ١٧×٢٤

تدمـــــــــك

١-

صرح للنشر والتوزيع | فكر يصنع حضارة

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ)

برج (٢) الدور العاشر.

ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com

الموقع الإليكتروني: www.dar-sarh.com

رقـــــــم الإيداع:

التـــــرقيم الدولي:

ديـــــــــــوي:

حقوق النشر محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إليكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

أدبُ الكاتب عندى ∴ ما له فى الكُتْب نِدُّ

ليس للكاتب منه ∴ إنْ أراد العلمَ بُدُّ

أبو منصور العبدونى

المقدمة

الحمد لله الذى نبه الإنسان إلى ما فيه خيره وحذره مما فيه ضَيْرُه ، وأوضح له الطريق المستقيم لينهجه ، وأراه صرح الكمال ليَلِجَهُ ، فيكون فى مأمن من الفساد والخلل ، مجانباً الخطأ والزلل ، فيعمل بالصواب ويتحلى بالفضائل والآداب فينال الثواب ويسعد فى المآب.

أما بعد ....

فإن عالمنا وأديبنا العَلَّامة ابن قتيبة قد أَلَّفَ كُتُبَه لأهل زمانه الذين انصرف أكثرهم عن طلب الأدب وشغلوا بشهوات النفوس وفتنوا بالجدل ، ونظروا فى المنطق ، وراحوا يطعنون فى كتاب الله ، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جهلاً وبهتاناً ، وأولعوا بالتشديق بألفاظ العلوم المنقولة عن الأعاجم ، وأهملوا النظر فى علوم الفقه والتفسير والفرائض واللغة والنحو.

ومن ثَمَّ تعد كتب ابن قتيبة ذخيرة من ذخائر الأدب والفقه والتفسير واللغة والنحو ، وسجلاً حافلاً للعلوم على مختلف أنواعها فلولاها لضاع الكثير من آثاره العظيمة . ويُعد ابن قتيبة أول من جمع بين مذهبى الكوفة والبصرة فى النحو والصرف ، ولا يقوم بهذا العمل إلا من أتقن المذهبين وعرف الأصول التى تُبنى عليها العلل والمقاييس.

مادة كُتُب ابن قتيبة مادة تراثية فى فترة ازدهار التأليف وعصر الريادة ، فى العصر الذى استوت فيه العلوم على سوقها، وآتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً – على حد قول أستاذنا الدكتور عبده الراجحى –

وذهبت علوم اللغة بالحظ الأوفر ، وذلك أننا لا نعرف لغة ارتبط درسها بدينها كما نعرف ارتباط العربية بالإسلام.

وراح ابن قتيبة فى ثنايا كُتُبه يفسر بعضاً من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى اختلف فى فهم معانيها ، وأُشكل فهمها ، وبَيَّن أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب على مذهبها فى الإيجاز والإطناب والإخفاء والإظهار ، ثم أَوَّلَ أسماء الله الحسنى وصفاته واشتقاقهما . ولعل اقتباس ابن قتيبة من القرآن الكريم والحديث الشريف يرجع إلى نزعته الدينية .

ولقد اعتنى العرب منذ القدم بالشعر اعتناءً بالغاً، وجعلوه سجلاً لمفاخرهم ومآثرهم ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : " أيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه[١] ومن ثَمَّ استشهد ابن قتيبة فى ثنايا كتبه بالكثير من الأشعار والحكم والأمثال والأقوال المأثورة عن الأعراب الفصحاء.

[١] – تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن : ج١ ص ١١١.

هذا ، وقد تضمن هذا الكتاب ثلاثة مباحث يسبقها مقدمة.

أما المقدمة فقد تحدثت فيها عن أهمية كتب ابن قتيبة وأسباب تأليفه لها ، وما تضمنته من تفسير لبعض آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربى وكلام العرب الفصحاء.

أما المبحث الأول فقد ترجمت فيه لحياة ابن قتيبة ترجمة مفصلة دقيقة ، تحدثت فيها عن اسمه ونسبه ، مولده ونشأته ، خلقه ، شيوخه ، ثقافته ، مكانته العلمية ، اتصاله بالخلفاء ، أشعاره ، وفاته.

أما المبحث الثانى فقد تحدثت فيه عن آثاره ومؤلفاته وأسلوبه فى كل كتاب أَلَّفَهُ على حده ، ثم هدفه من تأليفه له، وبيان أهميته ، ومدى الاستفادة من مادته العلمية ، إذ إن معظم كتبه تقدم لنا المعايير الأدبية واللغوية والمقاييس الخاصة بدرجتها الإبداعية فى التعبير ، تلك التى يمكن استثمارها فى مناحٍ علمية مختلفة ، ومن خلال ذلك يمكننا الربط بين التراث والعلوم الحديثة.

أما المبحث الثالث فعنوانه " بين أدب الكاتب وإصلاح المنطق" وفيه تصديت بالحجة والدليل لمن زعم أن كتاب أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ، وإصلاح المنطق كتاب بلا خطبة ، من خلال عقد مقارنة بين هذين الكتابين.

وبعد ....

فإنى فرائصى ترتعد إذا تناولت موضوع درس أو بحث أو كتاب خشية الخطأ – وهو من طبيعة البشر – فمن أجل ذلك ألزم نفسى وألح فى طلب التوفيق من الله .

" وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" [١].

المنوفية–أشمون فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر ١٤٢٦هـ

الموافق الأول من يونيه ٢٠٠٥م

المؤلف

د: مجدى إبراهيم محمد إبراهيم

١– سورة هود آية (٨٨)

المبحث الأول

ترجمة ابن قتيبة

أولاً ابن قتيبة " اسمه ونسبه " :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بـــن قتيبـــة [١] الـــدِّينَوَرِى، البغدادى ، الكوفى ، النحوى ، اللغوى ، كان فاضلاً ثقـــة ، ســـكن بغداد ، وأقام بالدنيور مدة قاضيًا ، فنسب إليها وقيل ولد ببغـــداد ، وقيل بالكوفة ، أما نسبه إلى المروزى فلأن أباه من مرو الـــروز، وأما نسبه إلى البغدادى، فلأنه ولد فيها على رأى بعضهم أو نـــزل بها" [٢] .

وله ألقاب أخرى ، ففى اللسان : قال الأزهرى ، ذهب الليث إلى أن ابن قتيبة مأخوذ من القَتْب .... وقال الأصمعى: "قَتَبُ البعير مذكر ولا يؤنث، ويقال له القِتْبِ .... وقال ابن سيدة : القِتْب والقَتَب إكاف البعير ، هو الإكاف الصغير الذى على قدر سنام البعير .... والجمع أقتاب ، وهى القَتَبَه بالهاء وتصغيرها قُتَيْبَة ، وقُتَيْبَـــة اســـم رجل منها ، والنسبة إلى قُتَبِى .... وقيل القِتْب ما تَحَوَّى من البطن

١- البغدادى ، تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ١٧٠، وأبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين: ص ٣٦ وما بعـــدها ، والسيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة: ج٢ ص ٦٣ وما بعـــدها ، والـــذهبى ، تـــذكرة الحفاظ: ج٢ ص ١٨٧ ، وابن النديم ، الفهرست : ص١١٥ وما بعدها ، والقفطى ، إنباه الرواة علـــى أنباء النحاة : ج٢ ص ١٤٣ ، والعسقلانى ، لسان الميـــزان: ج٣ ص ٣٥٧ : ٣٥٩ ، وابـــن خلكـــان ، وفيات الأعيان: ج٣ ص ٢٤ وما بعدها .

٢- ياقوت الحموى ، معجم البلدان: ج٢ ص ٥٤٥ ، والسمعانى ، الأنساب : ص ٤٤٣ ، وابـــن خلكـــان ، وفيات الأعيان: ٤٤/٣.

، يعنى استدار ، وهو الحوايا ، وجمعها أقتاب ، قال الأصـــمعى : واحدها قِتْبَة ، قال وبه سمى الرجل قتيبة ، وهو تصغيرها...[١].

ونحن إذا نظرنا إلى اسمى " مسلم ، وقتيبة " رأينـــا أنهمـــا يدلان بوضوح على أنهما مسلمان مستعربان فى أوائل القرن الثانى الهجرى [٢] ويقال : إنَّ هذين الاسمين ، مسلمًا وقتيبة ، يقترنـــان بالقائد العربى " قتيبة ابن مسلم الباهلى " الذى تولى حكم خراســـان بعد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، والذى أغرى الجد الثانى لابـــن قتيبة أن يسميه بهذا الاسم إعجابا بهذا القائد العربى وتيمنًا به" [٣].

وأغفلت المصادر التاريخية وكتب التراجم ذكر والده، ولعل مرجع ذلك يعود إلى أنه لم يكن ذا شأن اجتماعى ، ولـــم تهـــتم – كذلك – بالحديث عن جده سوى أنها أشارت إلى أنـــه مـــن مَـــرْو العظمى ، أى مرو شاهجان من أعمال " خراسان" [٤]

ونحن لا نعرف شيئًا عن طفولته ، إذ لم تتحدث المـــصادر عنها ولكن بعضها يشير إلى أنه نشأ بعد انتهاء مرحلة الطفولة فـــى الكوفة [٥]

١- ابن منظور الإفريقى ، لسان العرب ، مادة قتب: ج٢ ص ١٥٣ وما بعدها

٢ – د: إسحق موسى الحسينى The life and works of ibn qutaiba" p: ٦ " حياة ابن قتيبة وأعماله " ترجمه الى العربية هاشم ياغى.

٣ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج٣ ص ١٤٩.

٤- ياقوت الحموى ، معجم البلدان: ج٥ ص ١١٢ وما بعدها .

٥- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء فى طبقات الأدباء: ص ٢٠٩ ، وابن النديم ، الفهرست : ص ١١٥ ، وابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ج٧ ص ٤٣٨.

ثانيًا مولده ونشأته :

لم يهتم كثير من المؤرخين بسنة ولادته ، لأن الإنسان يولــد ولا يتكهن الناس بمصيره فى مستقبل الأيام ، أمـــا الـــذين اهتمــوا بمولده فهم: ابن خلكان ، وابن كثيــر ، والقفطـــى ، والـــسيوطى ، ويجمعون على أنه ولد فى مستهل رجب بالكوفة سنة عشرة ومائتين من الهجرة [١] بيد أن بعض المحدثين تردد فى قبول هذه الـــسنة " ٢١٣ هـ " تاريخًا لميلاده لأن ابن خلكان – وهو أول مترجم له – لم يعتمد على رواية سابقة أو مصدر قديم.[٢]

وقد اختلف المؤرخون فى موطن ولادته ، ذهب فريق منهم إلى أنه ولد بالكوفة كابن الأنبارى ، وابن النديم، وابن الأثير [٣].

وفريق آخر ذهب إلى أنه ولـــد فـــى بغـــداد كالـــسمعانى ، والقفطى ، والبغدادى ، والموسوى [٤] ونحن نرجح أنه ولـــد فـــى الكوفة تلك البلدة التى أقام أبوه فيها ، ونشأ هو فيها ، ثم سافر فيما بعد إلى بغداد ، وعرف فيها ، ثم إلى دينَوَر ، ومما يؤيد ذلـــك أن من ذكر أنه ولد فى الكوفة أسبق من غيره كابن الأنبارى ، وابـــن

١- ابن كثير ، البداية والنهاية : ج١١ ص ٤٨ ، والقفطى ، إنباه الرواة : ج٢ ص ٢٤٧ ، والسيوطى ، بغية الوعاة : ج٢ ص ٦٤.

٢- د: إسحق موسى الحسينى ، ابن قتية حياته وأعماله : ص ١٠

٣- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء: ص ٢٠٩، وابن النديم ، الفهرست: ص ١١٥

٤- القفطى ، إنباه الرواة: ج٢ ص ١٤٣ ، والسمعانى ، الأنساب : ص ٤٤٣ ، والبغدادى ، تاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧٠.

الأثير ، وابن النديم ، ولأن بعض الثقات ذكر أنه نزل بغداد وسكن بها ، مثل صاحب مرآة الجنان [١].

ونحن لا نعرف شيئًا عن طفولته ، إذ لم تتحدث المصادر عنها ، ولكن بعد أن شب عن الطوق انتقل إلى بغداد ، وتعلم على يد كوكبة من علماء عصره ، وأنه انكب على دراسة العلوم فى مختلف مجالاتها فهمًا ودرسًا وتحصيلاً ، أخذ علوم النحو واللغة والحديث والفقه والتفسير والأدب والأخبار عن جِلَّة علماء عصره . ثم إنه بعد أن ذاع صيته فى الآفاق واشتهر أمره ، كان ذلك سببًا فى توليته القضاء فى مدنية " دِينَور " [٢] لكنه سرعان ما ترك الوظيفة لإحساسه بأن مثل هذه الوظائف تجعل الإنسان لا خلاق له حيث يتصف بالنفاق ، وما كان بالمنافق ، ولم يتقرب من سلطان أو حاكم ، ولعل اعتداده بشخصيته هو الذى دفعه إلى ترك الوظيفة ، فعاد إلى التدريس ، وعكف على التصنيف ، وقرأ كتبه على طلابه حتى وفاته .

ثالثاً خلقه :

كان ابن قتيبة يتحلى بالأخلاق الرفيعة والسجايا الحميدة، ويرى أنهما ضروريان لطالب العلم يجب التحلى بهما قبل تحصيل

١- اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ج٢ ص١١٩ وما بعدها .

٢- الدِيْنَور : بلدة من بلاد الجبل قرب " قرمسين " ينسب إليها جماعة كثيرة من أهل الأدب والحديث والتفسير ، منهم ابن قتيبة .

العلوم ، فهو يقول فى مقدمته لأدب الكاتب : " ونحن نستحب لمن قَبِل عنا ، وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة ، وصناعته عن شَيْن الكذب " [١] وكان يهجر القول الفاحش ، فيقول : " وأما الشباب وشتم السلف وذكر الأعراض بكبير الفواحش ، فمما لا نرضاه لخساس العبيد وصغار الولدان"[٢]

ثم نراه يختم المقدمة بالحث على ترويض النفس على كريم الخصال وتجميلها بالتواضع وحب الحق ، يقول: " فمن تكاملت له هذه الأدوات ، وأمده الله بآداب النفس – من العفاف ، والحلم ، والصبر ، والتواضع للحق ، وسكون الطائر ، وخفض الجناح – فهذا المنتهى فى الفضل ، العالى فى ذرى المجد ، الحاوى قصب السبق ، الفائز بخير الدارين ، إن شاء الله تعالى"[٣] وكان التواضع من أبرز خلقه ، فهو لا يدعى لنفسه شيئًا ليس له ، ولا يستعلى على غيره ، ولا يتورع من أن يأخذ العلم حتى عن أخس الناس، يقول : " اعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة ، وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وعمن هو دوننا ، غير

١- مقدمة أدب الكاتب : ص ١١.

٢- المصدر السابق : ص ١٢.

٣- المصدر السابق : ص ١٦.

مستكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ، ولا عن الصغير قـــدرًا لخساسته " (١) .

وصفوة القول أن ابن قتيبة كان مثلاً أعلى للخلــق القــويم، والتواضع الجم ، والعلم الغزير المتين.

رابعًا شيوخه :

لقد تعلم ابن قتيبة على يد كوكبة من علماء عصره أمثال أبى حاتم السجستانى ، وإسحق بن راهويه ، والزيـــادى وغيـــرهم ... وهؤلاء العلماء من أساطين اللغة والنحو والأدب والفقه والتفــسير والحديث ، استفاد منهم ابن قتيبة – بلا شك – ولسنا هنـــا بـــصدد حصرهم ، ولكنا نشير إلى أكثرهم تأثيرًا فى نفسه وعقله ، وأقواهم فعلاً فى حياته ، أو من كانت ملازمته له أكثر، وفيما يلـــى قائمـــة مختصرة بأسماء شيوخه المشهورين :

١- سهل بن محمد ، أبو حاتم السجستانى ت "٢٤٨" ه أو "٢٥٥" ه النحوى ، اللغوى ، روى علم سيبويه عن الأخفش وروى عنه أنه كان يكتب عن الأصمعى كل شئ يلفظ به من فوائد العلم (٢) وكان أبو حاتم إمامًا فى اللغة والنحـــو والعـــروض والقراءات ، صادق الرواية ، اشتغل بالحديث ، وكتب كثيرًا

١- ابن قتيبة ، مقدمة عيون الأخبار .

٢- أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين: ص ١٣٠ : ١٣٢ ، وابن الأنبارى ، نزهة الألباء : من ص ١٨٩ إلى ص ١٩١.

منه عن ثقات [١] ومن كتبه التذكير والتأنيث ، والأضـــداد ، قرأهما ابن قتيبة.

ويمكننا أن نقول أن ابن قتيبة تأثر به من الناحية اللغوية، فألف كتاب تلقين المتعلم من النحو، وكتاب أدب الكاتب، وغيرهما..........

٢- إسحاق بن إبراهيم بن مخلد ، أبو يعقوب التميمى ، الحنظلـــى ، المروزى ، المعروف بابن راهويـــه (١٦١ هـ - ٢٣٨ هـ) قـــال ابن تيمية : " كان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد ، وإسحاق بن راهويه " [٢] .

تأثر به ابن قتيبة من ناحية اشتغاله بتفسير القرآن الكريم، فألف كتابيه غريب القرآن وتأويل مشكل القرآن ، وتأثر به كذلك من ناحية اشتغاله بالحديث فألف كتابيه تأويل مختلف الحــديث ، وغريب الحديث .

٣- عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ، كان عالمـــــاً بـــالأدب ، بليغًا، مصنفًا فى فنون متنوعة (ت٢٥٥هـ أو ٢٥٤هـ) [٣].

تأثر به ابن قتيبة من ناحية استعانته بالفكاهة والمـــرح كـــى يبعد عن القارئ الملل والسآمة ، وهذا واضح فى كتابـــه " عيـــون

١- ابن النديم ، الفهرست : ص ٥٨ ، والسيوطى ، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها: ج٢ ص ٤٠٨.
٢- ابن تيمية ، تفسير سورة الإخلاص : ص ٨٦ .
٣- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء : من ص ١٩٢ : ص ١٩٥ .

الأخبار " حيث يقول فى مقدمته : " ولم أخله مع ذلك مــن نــادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة عجيبة وأخرى مضحكة لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وإتعاب الحق"[١].

٤- إبراهيم بن سفيان بــن ســليمان ، أبــو إســحاق الزيــادى (ت٢٤٩هـ) كان نحويًا، لغويًا راويًا للأخبار ، قرأ على سيبويه كتابه، وروى عن أبى عبيدة والأصمعى[٢]

ويمكننا القول أن ابن قتيبة تأثر بالزيادى ، فأخذ عنه اللغــة والنحو ، نظراً لأن الزيادى تتلمذ على يد سيبويه والأصمعى وأبــى عبيدة .

٥- العباس بن الفرج ، أبو الفضل الرياشى ، اللغوى النحوى ، كان عالمًا باللغة والشعر كثير الرواية عن الأصمعى ، أخذ عن أبى عبيدة ، والمبرد ، وابن دريد، وكان ضليعًا فى النحو واللغــة ، قرأ النحو على المازنى، وقرأ عليه المازنى اللغة [٣].

٦- الكسائى " أبو الحسن على بن حمــزة الكسائــى (ت ١٨٩ هـ) تعلم على يديه قراءة القرآن الكريم ، وذلك لأن الكسائى كــان من قراء القرآن الكريم.

١- ابن قتيبة ، مقدمة عيون الأخبار .

٢- ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج١ ص ١٩٩ وما بعدها.

٣- القفطى ، إنباه الرواة: ج٢ ص ١٦١ ، وأبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين : ص ١٣٣ وما بعدها .

٧- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت " ت ٢٤٤ هـ " كان عالمًا بنحو الكوفيين ، وعلم القرآن الكريم [١] تأثر به ابن قتيبة من ناحية اشتغاله باللغة والنحو.

ونخلص مما سبق أن ابن قتيبة يعد من أكابر علماء اللغة العربية الذين أخذوا علومهم عن جِلَّة شيوخ العربية ، واللغة ، وعلم القرآن الكريم والشعر العربى .

هؤلاء هم أهم شيوخ ابن قتيبة وأشهرهم ، الذين تتلمذ على أيديهم وهناك عدد آخر أقل منهم شهرة لا يتسع المجال لذكرهم .

خامسًا ثقافته :

كان ابن قتيبة يتبارى فى التنقيب عن اللغة الفصحى من مظانها ، ولهذا كان يشد الرحال أحيانًا إلى البادية ليلتقى بالأعراب الفصحاء ، ويأخذ عنهم اللغة مشافهة .

وكان لثقافة العصر الذى عاش فيه أثر كبير فيه ، فقد أتقن المعارف المحيطة به من عربية وفارسية ويونانية وهندية ونبطية ، فاكتسب تلك العقلية المنظمة التى جعلت كتبه تتسم بطابع الاتزان ، بالرغم من كثرة المعارف والعلوم التى تحدث عنها ، فهو عندما يتناول موضوعًا يجمع كل عناصره فى ترتيب وتنسيق.

١- القفطى ، إنباه الرواة : ج٤ ص : ٥٧ .

ويذكر الدكتور الطاهر مكى أنه تزود وهو فى عنفوان شبابه بعلوم الأمم الأخرى وآدابها ، فكانت زاده ، كما قرأ الفلسفة اليونانية ، وبخاصة فلسفة أرسطو ، وبالرغم أنه كان من الفرس المَـوَالى ، كان دائمًا يدافع عن الإسلام والعربية ، وَتنحَّى العنصرية جانبًـا ، ولم يتعصب للفرس ، وكثيرًا ما آلمته هذه النزعات الطائفية التـى كانت تسئ للإسلام فجعل فكره سلاحًا للدفاع عنه [١].

يضاف إلى هذا أنه كان عالمًـا باللغـة والنحـو والـشعر، والحديث، والتفسير، والقرآن الكريم، متقنًا لكل هذه العلوم ، يقـول عنه الحافظ الذهبى: " إنه من أوعية العلم " [٢].

ولعل حب العلم كان من أبرز صفات ابن قتيبة ، الذى عشق هذا المضمار منذ نعومة أظفاره ، يقول عن نفـسه: " كنـت فـى عنفوان الشباب ، وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق مـن كـل علـم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم...." [٣] .

ولم يقتصر ابن قتيبة فى دراسته على العلوم العربية، وإنمـا درس العلوم الأجنبية وحَذَقَها ، بخاصة الفارسية ، كان على درايـة تامة بها ، ومما يعضد هذا الكلام ويقويه ، أنه عقد فى كتابه " أدب الكاتب " بابًا بعنوان " ما تكلم به العامة من الكـلام الأعجمـى" [٤]

١- د: الطاهر مكى ، دارسة فى مصادر الأدب : ص ١٧٨.

٢- الذهبى ، تذكرة الحفاظ : ج٢ ص ١٨٧

٣- ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث : ص ٧٤.

٤- أدب الكاتب : من ص ٣٨٣ إلى ص ٣٩١

سرد فيه العديد من الكلمات الأعجمية، وبَيَّنَ أصلها ، وهو كذلك لم يقف بالعلم عند حد معين ، فقد عرف شيئًا عن علم الرى ، ووسائله كالقناطر والجسور والدوالى والنواعير" [١]. ولم يكن ابن قتيبة بعيدًا عن التيارات الفكرية العصرية، ولذلك كان كتابه الموسوم "الرد على المشبهة".

سادسًا مكانته العلمية :

لا شك أن تنوع المعارف والعلوم عند ابن قتيبة كانت من أقوى الأسباب التى أهلته لكى يحتل مكانة علمية رفيعة ، ودليلنا على عظم قَدْره ، وعلو كعبه فى اللغة والنحو ، أنه ألف كتابى "أدب الكاتب" و "تلقين المتعلم من النحو " ، وغيرهما ....

ويعد ابن قتيبة أول من جمع بين مذهبى الكوفة والبصرة فى النحو والصرف ، ولا يقوم بهذا العمل إلا من أتقن المذهبين، وعرف الأصول التى تبنى عليها العلل والمقاييس عند المدرستين ..." إلا أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيين، لم يكن يأخذها عن ثقات ، وكان يتسرع فى أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليفه كتابًا فى النحو ...[٢] ولكننا نرى – كما يقول ابن تيمية نقلاً عن صاحب التحديث بمناقب أهل الحديث – أنه أحد الأعلام والأئمة والعلماء الفضلاء ، وأجودهم تصنيفًا وأحسنهم ترصيفًا ... وكان

١- مقدمة أدب الكاتب : ص ١٠

٢- مراتب النحويين : ص ١٣٧

أهل المغرب يعظمونه ، ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون كل بيت ليس فيه شئ من تصنيفه لا خير فيه ، قلت ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة "[١] وقال عنه القفطى : " وكان صادقًا فيما يرويه ، عالمًا باللغة والنحو ، وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف، وكتبه بالجبل مرغوب فيها "[٢] وقال عنه ابن الأنبارى : " كان فاضلاً فى اللغة والنحو والشعر متقنًا فى العلوم [٣] وقال عنه مسلم بن قاسم : " كان ابن قتيبة لغويًا ، كثير التأليف ، عالمًا بالتصنيف ، صدوقًا من أهل السنة " [٤] وقال عنه ابن خلكان : " كان فاضلاً ثقة ، وتصانيفه كلها مفيدة [٥] وقال الخطيب البغدادى عنه : "كان ثقة دَيِّنًا ، فاضلاً ، وهو صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة " [٦].

ولقد شارك ابن قتيبة فى محنة خلق القرآن، وكان له رأيه الخاص، كما شارك فى فكرة المشبهة والمجسمة، وكان له رأبه، كما شارك فى الخلاف النحوى بين مدرستى الكوفة والبصرة، وجعل بينهما مدرسة ثالثة فى بغداد كان هو راعيها، كما شارك فى

١- تفسير سورة الإخلاص : ص ١٣٠.
٢- القنطى ، إنباه الرواة: ج٢ ص ١٤٧
٣- ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث : ص ٧٤.
٤- العسقلانى ، لسان الميزان : ج٣ ص ٣٥٨
٥- وفيات الأعيان : ج٣ ص ٤٢.
٦- تاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧٠

الرد على الشعوبية. كل ذلك أدى إلى استهدافه ومحاولة إثارة الفتن حوله.

كما كان ابن قتيبة ذا صفات حميدة ، فقد كان كريمًا بعلمه ، سمحًا فى اقرائه الطلاب كتبه ، ولم يؤثر عنه أنـــه حبـــسها عـــن طلابها حتى يقبض أجره ، كما أثر عن قرينه أبى العباس المبـــرد " ت ٢٨٥ هـ[١] .

ونخلص مما سبق أن ابن قتيبة كان إمامًا من أئمـــة اللغـــة وشيخًا عظيمًا من شيوخ العربية .

سابعاً اتصاله بالخلفاء :

لم يكن ابن قتيبة له اتصال وثيق بالخلفـــاء ، أو المناصـــب المهمة فى الدولة ، اللهم إلا توليته القضاء فى مدينة دِينَوَر فتـــرة، وكان هذا العمل من أهم الأسباب التى جعلت لـــه علاقـــة بـــوزير الخليفة المتوكل والمعتمد (عبيد الله ابن يحيي بن خاقـــان) الـــذى تولى الوزارة من سنة ٢٣٦ هـ إلى سنة ٢٥٦ هـ ، والذى توفى سنة ٢٦٣ هـ ، ومما يؤيد هذه العلاقة ، أنه أَلَّفَ كتـــاب "أدب الكتـــاب" وأهداه لهذا الوزير ، وأحسن صلته ، واصطنعه ، وقدمه للمتوكل ، وأحسن الثناء عليه عنده .... [٢].

١- مراتب النحويين : ص ١٣٧

٢- مقدمة أدب الكاتب هامش ص٥ ، وما قبلها

ومعنى هذا أن العلاقة بينهما لم تكن إلا علاقة علمية، لأنه أهداه كتابه، فأثنى عليه ، وأشار إلى أنه صَنَّفه استجابة لطلبه ، كما أنه لم يكن من خاصة الوزير والمقربين إليه ، لأنه لم يشر إلى ذلك فى كتبه الأخرى .

والذى نرجحه أنه ترك وظيفة القضاء فى مدينة دِيْنَوَر ، لإحساسه بأن هذه الوظيفة تجعل الإنسان لاخلاق له حيث يتصف بالنفاق ، ولعل اعتداده بشخصيته هو الذى دفعه إلى ترك الوظيفة ، فعاد إلى التدريس ، وعكف على التصنيف ، وقرأ كتبه على طلابه حتى وفاته .

ثامنًا أشعاره :

لم يعرف عن ابن قتيبة أنه نظم شعرًا، لكننا رأينا أنه ارتجل بيتا واحدًا فى كتابه عيون الأخبار ، يقول [١]:

لك الحق أنْ تَعْتِبْ عَلَيَّ لأننى .·. جَفَوْتُ وإما تَغْتَفِر فلك الفضل

لقد أورد ابن قتيبة هذا البيت فى عيون الأخبار لكاتب، اعتذر له، قائلاً : وحضرنى هذا البيت على ارتجال والذى نرجحه أن ابن قتيبة هو القائل ، ويبدو أنه يعاتب صديقًا له ، كان قد ابتعد عنه فترة من الزمن .

١- ابن قتيبة ، عيون الأخبار ج٢ ص ١٠٢.

هذا وقد ذكر ابن قاضى شهبة فى طبقاته ، أن ابن قتيبة نظم ثلاثة أبيات فى الغزل هى:[١]

يا من مودته بالعَيَــــــــا ∴ ن فإنْ غاب كانت مع الغائب

يا من رضىِ لى من وده ∴ بفعل امرئ قاطع قاضـــــــب

بأية جُرْمٍ قد أقْصَيْتَنــــى ∴ وألقيت حبلى على غاربـــى

ونحن نرى أن هذه الأبيات ، لا تصدر على لسانه ، إذ إنـــه كان مثلاً أعلى للأخلاق الرفيعة ، والسجايا الحميـــدة ، والعفـــاف ، والحلم ، والصبر ، والتواضع للحق.

١– ابن قاضى شهبة ، طبقات النحاة : ج٢ ص ٥٢ .

تاسعًا وفاته :

اهتم المؤرخون والمترجمون الذين تعرضوا لابن قتيبة بذكر سنة وفاته – هذا شأنهم مع أساطين العلماء ، لا يهتمون بمولدهم ، لأنهم لا يتوقعون ما سيكون من أمرهم ، ولكن بعد أن حظى بالشهرة ، اهتم الناس به، ورَصَدُوا نشاطه فى خدمة العلم ، وَأَرَّخُوا لحياته ووفاته .

وحين نبحث عن تاريخ وفاته نجد أن الخلط والاضطراب يسودان المصادر القديمة فى تحديد وفاته ، قال بعضها إنه توفى سنة "٢٧٠ هـ" وقال آخرون إنه توفى سنة "٢٧٦هـ" وهناك قلة قليلة من العلماء ذكروا أنه توفى سنة " ٢٧١هـ" [١]

والذى نرجحه أنه ظل يقرأ كتبه ببغداد على تلاميذه، إلى أن فاضت رَوْحُه إلى بارئها أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين [٢] ومما يؤيد هذا أن ابن الأنبارى نقل عن ابن المنادى ، عن أبى القاسم إبراهيم بن محمد ابن بشير الضائع – أحد تلاميذ ابن قتبية – أن وفاته كانت فى أول ليلة من رجب سنة "٢٧٦ هـ" وينقل الخطيب البغدادى رواية ابن الأنبارى السابقة ، ورواية أخرى تذكر أنه توفى سنة " ٢٧٠ هـ" بلا ترجيح بينهما ، بيد أن ابن خلكان ذكر

١- الفهرست : ص ١١٥ ، وتاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧١ ، ونزهة الألباء : ص ٢١٠ ، وإنباه الرواة : ج٢ ص ١٤٢ ، وبغية الوعاة : ج٢ ص ٦٤

٢- هذا هو القول الراجح الذى أورده كثير من المؤرخين .

الروايتين السابقتين ، وأضاف إليهما رواية أخـرى هـى سـنة " ٢٧١هـ" ثم يرجح سنة " ٢٧٦هـ" [١].

وسنحاول مناقشة هذه الأقوال جميعها ، كى نقف من بينهـا على الرأى الراجح.

١- رحل القاسم بن أصبع البيانى – أحد تلاميذ ابن قتيبة فى بغـداد – سنة " ٢٤٧ هـ : ٣٤٠ هـ " إلى بلدة تسمى بيانة – وهى بلدة أندلسية بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً – إلى بلاد الشرق سنة " ٢٧٤ هـ " ليأخذ العلم عن جماعة من العلماء ، كان من بيـنهم ابن قتيبة.

٢- ذكر إبراهيم بن محمد بشير الصائغ – وهو من تلاميـذ ابـن قتيبة – أن وفاته كانت سنة ٢٧٦ هـ [٢] .

٣- ذكر الزبيدى أنه توفى سنة ٢٧٦هـ ، وهو من أسبق المترجمين له [٣] .

ونستنتج مما سبق أن سنتى " ٢٧٤ هـ ، ٢٧٥ هـ" لم تردا قط فى سنوات وفاته عند أحد من المؤرخين ، وبناء على هذا فالمرجح أنه توفى سنة ٢٧٦هـ .

---

١ – إنباه الرواة : ١٤٣/٢ ، الفهرست : ص ١١٥ ، تاريخ بغداد: ج١٠ ص ١٧١، نزهة الألباء : ص ٢١٠، وابن الأثير ، الكامل: ج٧ ص ٤٣٨

٢- د. الحسينى ، حياة ابن قتيبة وأعماله : ص ١٤.

٣- المصدر السابق : ص ١٤ ، ود: عبد الحميد سند الجندى ، ابن قيبة العالم الناقد الأديب : ص١٠٠.

أما الأسباب التى أدت إلى وفاته ، فقد ذكرها ابن المنادى فى روايتين:

الأولى : روى عن أبى القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ ، وهى " أن ابن قتيبة أكل هريسة ، فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمى عليه إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ، فمازال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات " [١].

الثانية : قال محمد بن عبد الواحد بن محمد بن العباس ، قال : قُرِئَ على ابن المنادى وأنا أسمع ، قال: ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة صاحب التصانيف فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ، ثم أغمى عليه ومات [٢].

من خلال هاتين الروايتين ، تبين أنه مات فجأة ، حيث صاح صيحة شديدة ، وذلك بعد أن أكل هريسة .

وقد اعتقدنا أن الهريسة هى الأكلة المعروفة لدينا فمات لفسادها ، ولكن أخبرنا أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب أن الهريسة فى البلاد العربية – يقصد الجمهورية الليبية – تعنى الشطة الحريفة . ومما يؤيد هذا أنه عرض على أستاذنا فى إحدى رحلاته

١– تاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧٠ ، الفهرست : ص ٨٦ ، نزهة الألباء : ص٢١٠، ولسان الميزان : ج٣ ص ٣٥٨.

٢– تاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧٠.

من أحد تلاميذه سطيرة من الهريسة معتقدًا نفس ما اعتقدناه ، مـــن أنها تعنى أحد أنواع الحلوى فإذا بها مملوءة بالشطة.

المبحث الثانى

آثاره ومؤلفاته (رؤية نقدية)

لقد ترك لنا ابن قتيبة ثروة كبيرة من المؤلفات فـــى اللغـــة والنحو والحديث والتفسير والفقه والشعر ، كلها تهدف إلى التعلـــيم والإفادة ، وكلها مؤلفات نفيسة أثرى بها المكتبة العربية ، قال ابـــن تيمية نقلاً عن صاحب التحديث بمناقب الحديث : إن لابـــن قتيبـــة زهاء ثلاثمائة مصنف [١] وقال آخرون : "وله مصنفات كثيرة جـــدًا رأيت فهرسها ، ونسيت عددها ، وأظنها تزيد على ستين مصنفًا فى أنواع العلوم ، وقيل إنها ثلاثة وثلاثون ، ونشك فـــى الـــرقم الأول "ثلاثمائة" ويبدو أن هؤلاء خلطوا بين عناوين الكتب والأبواب التى تشملها بعض الكتب [٢]

ويكفى أن نشير إلى هذه المؤلفات ، موردين نبذة يسيرة عن كل مؤلف ألفه ابن قتيبة بقدر ما يتسع له المقـــام وبحـــسب قيمتـــه العلمية .

١- أدب الكاتب :

حين نذكر ابن قتيبة فإن الذهن ينصرف إلـــى كتابـــه "أدب الكاتب " والسر فى ذلك يرجع إلى ما نبه إليـــه صـــاحب كـــشف

١- ابن تيمية ، تفسير سورة الإخلاص : ص ١٣٠

٢- د: الظاهر مكى ، دراسة فى مصادر الأدب : ص ١٧٨ وما بعدها .

الظنون قائلاً : إنه كتاب جزيل النفع ، قد حوى من كل شئ أحسنه " [١] وقد عده ابن خلكان فى مقدمته من دواويين الأدب الأربعة ، يقول : " وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواويين وهى " أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فَتَبَعٌ لها وفروع عنها " [٢]

هذا وقد جاء الكتاب مبينًا على مقدمة وأربعة أبواب، سمى ابن قتيبة كل باب منها كتابًا .

المقدمة: وتحدث فيها عن كُتَّاب الدواوين وغيرهم، ممن يظنون بأنفسهم العلم ، وهم جهلاء ، ومن ثَمَّ انبرى ابن قتيبة يدافع عن اللغة الفصحى ، تلك التى اضطرب حبل نظامها، واختل توازنها ، وتسرب إليها اللحن والخطأ والانحراف لا على ألسنة العامة فحسب ، بل على ألسنة الخاصة كذلك ، أمثال المثقفين وكتاب الدواوين والولاة والوزراء وغيرهم...

وراح ابن قتيبة فى المقدمة كذلك يسخط على هؤلاء الكُتَّاب ، مُنَبِّها على الصفات التى يجب توافرها فيهم ، وهى أن يكونوا

١- حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون : ج١ ص ٧٣ .

٢- مقدمة شرح أدب الكاتب : ص٥ ، والاقتضاب : ج١ ص١٨ وما بعدها ، وابن خلدون ، المقدمة : ص٥٢٢ .

مُلمين باللغة والنحو والأدب والفقه وعلوم القرآن والحديث ، وأن يتجنبوا الألفاظ الفاحشة فى كلامهم ، ويَدَعُوا التقعير والتقعيب ، ويبتعدون عن الألفاظ الوعرة التى تحتاج إلى جهد ومشقة حين فهم معانيها ، وعليهم أن يعرفوا شيئًا عن علم المساحة والموازين والمقاييس ودوران الشمس ومطالع النجوم ، وأن يكون كلامهم مطابقًا لمقتضى الحال ، فلا يخاطبوا الخلفاء بكلام السوقة ، وعليهم التحلى بالأخلاق الرفيعة والصفات الحميدة .. إلى آخره [١] .

وابن قتيبة فى كل هذا يستدل على صحة ما يقول بالقرآن الكريم تارة، وبالحديث الشريف تارة ثانية ، وبما أُثِر عن حكماء الفرس وملوكهم تارة أخرى ، مما يدل على أنه واسع العلم والمعرفة والثقافة .

ويبدو أن مهمة هؤلاء الكُتَّاب فى تلك الآونة ، هى جودة الخط وإتقانه، دون اهتمامهم بمعانى الألفاظ والتراكيب ، يقول ابن قتيبة ساخرًا منهم لعجزهم الشنيع باللغة الفصحى : " فأبعد غايات كَاتِبُنَا فى كتابته أن يكون حَسَنَ الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبيات فى مدح قَيْنَة [٢] أو وصف كأس .... ثم يعترض على كتاب الله بالطعن، وهو لا يعرف معناه

١- انظر مقدمة أدب الكاتب : من ص١ إلى ص١٦.

٢- القَيْنة : الأَمَة ، مغنية كانت أو غير مغنية .

، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، وهــو لا يدرى من نقله [١].

مما حدا بابن قتيبة إلى محاولة إصلاحهم ، فوضــع هــذا الكتاب ذخيرة من اللغة ، ومسائل من النحو ، وزادًا من المعرفــة، يُقَوِّم به كاتب الديوان لسانه حين يتحدث ، وقلمه حين يكتب وينشئ.

– **أما الكتاب الأول** فهو كتاب المعرفة ، حاول فيه ابن قتيبة أن يثقف القارئ والكاتب اللذين يجهلان دلالة الألفاظ ، ومعرفة الفروق الدقيقة بين مدلولاتها ، ولذلك نراه ينبه على الخطأ والغلط كثيرًا ، وهذا واضح فى باب معرفة ما يضعه الناس فى غير موضعه " [٢] ثم سرعان ما نجده يرتب المادة اللغوية بحسب الموضوعات والمعانى ، كما فى " باب معرفة ما فى السماء والنجوم والأزمان والرياح ، وكما فى باب الخيل ، وباب الطير وأبواب الفروق إلى آخره ...، وهو بذلك يكون قد كَوَّن معجمًا لغويًا صغيرًا بحسب الموضوعات أو المعانى ، وهذا يتمثــل فى تصنيفــه لهذه الموضوعات ، وحصره للألفاظ ، ومعالجتــه لمعانــى كلمات بعض الحقول الدلالية فى العربية ، ولعله يهدف من وراء كل ذلك إلى التعرف على معناها المعجمى lexical meaning بإيضاحها وشرحه وتفسيره.

١– أدب الكاتب : ص ٢ وما بعدها

٢– أدب الكاتب : من ص ١٧ إلى ص٣٦

- **أما الكتاب الثانى** فهو كتاب تقويم اليد ، أدرج تحته دروسًا عن قواعد الرسم الإملائى كحذف الألف والياء من الأسماء ، ودخول ألف الاستفهام على ألف الوصل فى المقصور والممدود ، كما تحدث عن أحوال الهمز ، من تحقيق وحذف وتسهيل إلى آخره ...

- **أما الكتاب الثالث** فهو كتاب " تقويم اللسان " : وهذا الكتاب خاص ببعض أخطاء العامة فى الفصحى وفيه أدرج ابن قتيبة العديد من المفردات التى تتقارب فى اللفظ وفى المعنى ، فربما وضع الناس أحدهما فى موضع الآخر، وما جاء ساكنا والعامة تحركه إلى آخره ...

- **أما الكتاب الرابع** فهو " كتاب الأبنية " : وهو خاص بالصرف العربى ، وتطبيق واسع على أبنية الأفعال والأسماء من صيغ الاشتقاق بأنواعه المتعددة ....

أسلوب ابن قتيبة فى أدب الكاتب :

يتميز أسلوب ابن قتيبة فى هذا الكتاب القيم بالتفقه فى اللغة ، وإلمامه لألفاظها ، واستنباطه لأسرارها ، كان شديد العناية بالمعنى ، يتخير الألفاظ للمعانى ، لا المعانى للألفاظ ، وكان يراعى فى كلامه أن يكون مطابقًا لمقتضى الحال ، يميل إلى تأدية المعنى من أقرب طريق ، وينفر من استخدام

الألفاظ الوحشية الغربية ، التى تحتاج إلى جهد ومشقة حين التعرف على معانيها ، ولذلك نراه يقول: "ونستحب له (أى للكاتب) أن يدع فى كلامه التقعير والتقعيب[١] .

وفى ثنايا الكتاب نجد أسلوبه مزداناً بالاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ولعل هذا يرجع إلى نزعته الدينية ، يضاف إلى هذا استشهاده بالشعر والحكم والأمثال والأقوال المأثورة عن الأعراب الفصحاء.

لكن ، ما أهمية دراسة أدب الكاتب؟

إن أهمية هذه الدراسة – من وجهة نظرنا – تتصل بقضايا التغير اللغوى وما تحتويه مما قد يسمى باللحن قديمًا أو حديثًا، ولذلك حاول علماء العربية القدماء – وفى مقدمتهم ابن قتيبة – أن يحافظوا عليها من ألوان اللحن الصوتى والصرفى ، وكانت لهم فى ذلك جهودهم المعروفة، بيد أن مواقفهم تختلف بين متشدد ومتساهل ، كما أن الظواهر التى تناولوها قد تحتمل من التفسيرات التطورية أو اللهجية ما لم يفطن إليها بعض القدماء ، وهو ما تحاول هذه الدراسة أن تستجمع خيوطه ومتناثراته كى نصل فيه إلى الرأى الأرجح.

١– مقدمة أدب الكاتب: ص١٢ ، والتقعير: الانتهاء إلى قعر الشئ ، هذا أصله ، وتقول " قَعَرَ الرجل " إذا روى فنظر فيما يغمض من الرأى حتى يستخرجه ، كأنه إذا تكلم بكلام غريب عويص احتيج معانيه ، كما يحتاج إلى إخراج ما فى القعر ، والتقعيب مثل التقعير ، ومعناه التعميق.

الهدف من تأليف ابن قتيبة لأدب الكاتب:

لم يكن هدف ابن قتيبة من تأليف كتابه إلا تقويم اعوجاج الألسن ، وتعويد الناشئة على النطق السليم المبرأ من العيب بعد ذيوع اللحن وانتشاره على ألسنة العامة والخاصة مما دفعه لتأليف كتابه هذا لتأديب كُتَّاب الدواوين والولاة والمثقفين عامة ، الذين ظنوا بأنفسهم العلم ، وهم جهلاء ، وتعليم الخاملين المتطاولين الذين غفلوا عن حقيقة حالهم فأهملوا النظر فى اللغة، وانصرفوا إلى العلوم الحديثة والمترجمة ، فضعفت صلتهم بالعربية الفصحى، وجهلوا الكثير من مسائلها ، فنشروا على الناس جهلهم .

وبناء على هذا فإن ابن قتيبة استهدف تعليم الجهال ممن يدعون العلم، وكشف المتطاولين على القيم الدينية ، وهم أجهل الناس بمكانتها ، ومن ثَمَّ أَلَّفَ لهم " أدب الكاتب" جمع فيه بين تقويم اللسان وتقويم اليد " أى رسم قواعد الكلمات ".

ونظرًا لشهرة هذا الكتاب، وجودة مادته العلمية فقد طبع فى القاهرة أكثر من خمس مرات ، صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٣٠٠ هـ ، وأول من قام بنشره المستشرق الألمانى اسبرول sproull فى ليبسك سنة ١٨٤٨م، ثم أعاد نشره المستشرق الألمانى الدكتور ماكس جرونرت Max Grunert فى مطبعة بريل ، فى ليدن سنة ١٩٠٠ ميلادية ، وقد عنى بوضع فهارس له.

وقد نال هذا الكتاب حظًا كبيرًا من ثناء العلماء، فقد تناولوه شرحًا واختصارًا وإضافة وتعليقًا ونقدًا وتهذيبًا، وذلك نظرًا لجودة مادته العلمية، وذلك على الوجه الآتى :

١- شرح خطبته عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجى " ت ٣٣٧هـ"[١].

٢- شرح أبياته أحمد بن محمد البشتى الخارزنجى " ت ٣٤٨ هـ" [٢]

٣- شرحه إسحاق بن إبراهيم الفارابى " ت ٣٥٠ هـ" [٣].

٤- شرحه أبو على القالى البغدادى " ت ٣٥٦هـ " [٤].

٥- شرح مقدمته ابن خير الإشبيلى ، وسماها " شرح صدر أدب الكاتب" [٥].

٦- شرح خطبته عبد الباقى بن محمد " ت ٣٩٢هـ" [٦].

٧- شرحه أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى (٤٤٤هـ - ٥٢١هـ) وسماه " الاقتضاب فى شرح أدب الكُتَّاب" [٧] وقد جعله فى ثلاثة أجزاء ، قصر الأول منه على شرح

١- حاجى خليفة ، كشف الظنون : ج١ ص٤٨ ، وإنباه الرواة : ج٢ س١٦٠ ، وكارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى : ج٢ ص ١٧٦

٢- كشف الظنون : ج١ ص٤٨ ، بغية الوعاة : ج١ ص ٦٠٢.

٣- معجم الأباء : ج٤ ص٢٠٨ ، وبغية الوعاة : ج١ ص ٣٨٨.

٤- بغية الوعاة : ج١ ص ٤٣٨ ، ومعجم الأدباء : ج٦ ص ٦٣ ، وكشف الظنون : ج١ ص٤٨

٥- معجم الأدباء : ج١٨ ص ٢٧٥

٦- ابن خيرى الإشبيلى ، فهرست ما وراء عن شيوخه : ص٣٤٤ .

٧- تاريخ الأدب العربى : ج٢ ص ٢٢٦

الخطبة ، والثانى على التنبيه على الأغلاط ، والثالث على شرح الأبيات [١].

٨- شرحه موهوب بن أحمد الجواليقى " ت ٥٤٠ ه" [٢]

٢- تأويل مشكل القرآن الكريم:

ويتضح من اسمه أن ابن قتيبة أوضح كل ما أُوُشْكل فهمه من آى الذكر الحكيم ، وبَيَّنَ أن القرآن نزل بلغة العرب على مذهبها فى الإيجاز والإطناب ، والإخفاء والإظهار ، وقد ضَمَّنَه أبوابًا عديدة ، منها باب للكناية والتعريض ، وآخر للاستعارة ، فالمقلوب ، وباب آخر بعنوان " باب تأويل الحروف التى ادَّعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم " فتحدث عن الحروف المقطعة ، واختلاف المفسرين فيها ، وقد أورد لكل آية فيها شَبْهَة ، أو عبارة فيها خفاء ، والأمثال والنظائر من مأثور القول عند البلغاء والفصحاء ، وعقد أيضًا بابًا بعنوان " باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة " تحدث فيه عن الألفاظ التى جاءت فى القرآن متحدة المبانى ، مختلفة المعانى، وهذا الباب – فى رأينا – له قيمة عظيمة فى اللغة ، لأنه أرجع المعانى المختلفة للفظ الواحد إلى أصل واحد نشأت فيه وتفرعت عنه.

١- انظر – مثلاً – طبعة الهيئة العامة للكتاب ، طبعة ١٩٨٢.

٢- انظر: طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، بتحقيق مصطفى صادق الرافعى.

وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة الأستاذ السيد أحمد صقر سنة ١٣٧٣هـ، ثم أعيدت طبعته سنة " ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م بدار التراث بالقاهرة.

٣- غريب القرآن :

وهو مكمل لكتاب " تأويل مشكل القرآن " يتضح ذلــك مــن قوله " وأفردت للغريب كتابًا كى لا يطول هذا الكتاب [١] وقد ذكــر منهجه متمثلاً فى تقديمه للكتاب وتبويبه على ثلاثة أقسام:

الأول : تأويل أسماء الله الحسنى ، وصفاته ، واشتقاقهما .

والثانى : لتفسير المفردات التى تكررت كثيرًا فى القرآن الكريم .

والثالث : لتفسير الغريب.

ونشره لأول مرة الأستاذ السيد أحمد صقر ســنة " ١٣٨٧ هـ = ١٩٥٨م" دار إحياء الكتب العربية بالقــاهرة، ثــم أعيــد طبعــه مصورًا سنة " ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م" دار إحيــاء الكتــب العربيــة بالقاهرة ، ثم أعيد طبعه مصورًا ســنة ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨" بــدار الكتب العربية ببيروت.

هذا وقد جمع الإمام محمد بن أحمد بــن مطــرف الكنــانى الأندلسى – أحد قراء الأندلس – المتوفى سنة (٤٥٤هـ) مادة كتابى "

١- ابن قاضى شهبة ، طبقات النحاة : ج٢ ص ٥٢ .

تأويل مشكل القرآن ، وتفسير غريب القرآن " فى كتاب واحد ، سماه " القُرْطين " جعله فى جزأين.

٤- الشعر والشعراء :

ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة باسم "طبقات الشعراء" [١] ولعل السبب فى تسميته بذلك ، أنه يشبه مادة كتاب " طبقات الشعراء"لابن سلام ت "٢٣٢ هـ" وقد ألفه فى أخريات أيامه ، وجعله فى جزأين ، تحدث فى الجزء الأول عن مفهوم الشعر ، لفظه ومعناه ، حسنه وقبيحه ، والإقواء ، والإكفاء، والعيب فى الإعراب ، وأوائل الشعراء ، يقول: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب":[٢]

١- ضربٌ منه حَسُنَ لفظه وجاد معناه كقول القائل: [٣]

١- الفهرست : ص١١٦ ، وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٤٢ ، وبغية الوعاة : ج٢ ص ٦٤ ، والداوودى ، طبقات المفسرين : ج٢ ص ٢٤٦.

٢- انظر أنواع هذه الأضرب فى كتاب الشعر والشعراء : ج١ من ص ٦٤ إلى ص ٧١.

٣- هذان البيتان للحزين الكنانى من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان . وزعم أبو تمام فى الحماسة أنهما له فى مدح زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ج ٤ ص ١٦٧ :١٦٩ من شرح التبريزى. وزعم غيره أنهما من أبيات للفرزدق فى مدح زين العابدين . قال الأصبهانى فى الأغانى : " وهو غلط ممن رواه فيها ، وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل على بن الحسين عليهما السلام ، وله من الفضل المتعالم ما ليس لأحد " . وقال أيضًا: "والصحيح أنها للحزين فى عبد الله بن عبد الملك ، وقد غلط ابن عائشة فى إدخاله البيتين فى تلك الأبيات ، وأبيات الحزين مؤتلفة منتظمة المعانى، متشابهة تبنئ عن نفسها " ثم ساق أبيات الحزين. انظر الأغانى: ج١٤ ، ص ٧٤: ٧٧ ، والشعر والشعراء : ج١ ص٦٥.

فى كَفِّه خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبَــــقٌ ∴ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فى عرْنِينِه شممُ [١]
يُغْضِى حَيَاءً ويُغْضى مِنْ مَهَابَتِهِ ∴ فَما يُكلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَسِــــــمُ

لم يُقل فى الهيبة شئٌ أَحسنُ منه .وكقولِ : أَوْسِ بن حَجَر [٢] وذلك أن معانيه مبتكرة وجيدة، ويتسم بتركيز الأسلوب، وبالوحــدة الفنية الموسيقية.

لم يبندأ أحد مرثية بأحسن من هذا. ومثل هذا الشعر رقيــق اللفظ، سهل القياد، عميق المعنى، لا يعمد إلى التعقيــد، ولا يحمــل القارئ شطط الغوص وراء معنى خبئ فى ملمات الغيــب، وهــذا الشعر يتوغل فى أعماق القارئ حيث يملأ النفوس حزنًــا وتفــيض الدموع أسفًا وحسرة.

هذا أبدع بيت قاله العرب لأنه جزء من كياننا الإنسانى حيث وضع أبو ذؤيب الكلمة فى موضعها المناسب، فعبرت عن معناهــا تعبيرًا صادقًا لأن الصدق فى الشعر مــن أهــم عوامــل درجــات التفوق، على أنه يجب أن يكمون للشعر عمل إيجابى ونزعة هادفة فى المجتمع، وأن يتابع الأحداث وبؤثر فيها، ويــدفع إلــى البنــاء والتجديد النفسى.

١- الخَيْزُران : كل عود لين أملس.
- العِرْنِين : ما صَلُبَ من عَظْم النف حتى يكون الشَّمَمُ ، وعرانين القوم : سادتهم واشرافهم .
- نَمِضىَ الرجلُ : أطبق جَفْنيه على حَدَقَيْه حياءً .

٢- هذا البيت صور مرثية جيدة نادرة ، وقد ورد فى الشعر والشعراء: ج١ ص ٦٥، والأغانى : ج١٠ ، ص٧ .

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعَـــــًا ∴ إِنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَـــــا

لم يبتدئْ أَحدٌ مرثيةً بأَحسنَ من هذا .

وكقول أَبى ذُؤَيْبٍ: [١]

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهــــا ∴ وإِذَا تُرَد إِلىَ قَلِيـــلٍ تَقْنَـــعُ

قال ابن قتيبة : حدثنى الرَّياشِىُّ عن الأَصْمَعِىّ قـــال : هـــذا أَبدعُ بيت قاله العربُ .

٢- وضرب منه حَسُنَ لفظُه وحَلاَ ، فإذا أَنت فَتَّشْتَه لم تَجِدْ هنـــاك فائدة فى المعنى ، كقولِ القائلِ : [٢]

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنـــى كُـــلَّ حَاجَــةٍ ∴ ومَسَّحَ بِالأَرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِــحُ

وشُدَّت على حُدْبِ المَهَارِى رحَالنَـــا ∴ ولا يَنْظُرُ الْغَادِى الذى هُوَ رَائِــحُ

أَخَذْنَا بِـــأَطْرافِ الأَحَادِيـــثِ بَيْنَنَـــا ∴ وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ[٣]

هذه الأَلفاظُ كمَا تَرَى ، أَحسنُ شىءٍ مَخارِجَ ومَطَالِعَ ومَقَاطِعَ ، وهى مثال للشعر الرائق لفظه ، البسيط معناه . وإن نظرتَ إلى ما تحتها من المعنى وجدتَه : ولما قَطَعنا "أى قـــضينا " أَيَّـــام مِنًـــى ،

١- ورد هذا البيت فى الشعر والشعراء : ج١ ص ٦٥.

٢- هذه الأبيات وردت فى الخصائص: ج١ ص٢٢٥، ومعجم البلدان: ج٨ ص ١٥٩

٣- المَهَارِى : الإبل النجيبة التى تسبق الخيل ، وهى منسوبة إلى قبيلة مَهْرة بن حَيْدان.

- المطى : الدواب التى تركب.

- الأباطح : جمع الأبطح وهو المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى ، ومنه أبطح مكة.

واستلمنا الأَركانَ ، وعالينا إبلنا الأَنــضاءَ[١] ، ومــضَى النــاسُ لا ينتظر الغادِى الرائحَ ، ابتدأنا فى الحديثِ ، وسارت الــدواب فـــى الأماكن المتسعة.

٣ – ضربٌ منه جاد معناه وقصُرَت أَلفاظُه عنه ، كقول لَبِيدِ ابــن رَبيعَةَ : [٢]

ما عَاتَبَ المَرْءَ الكَرِيمَ كَنَفْسِهِ ∴ والمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

هذا وإِن كان جيّدَ المعنَى والسبكِ فإِنَّهُ قليلُ الماءِ والرَّونق .

٤ – ضربٍ منه تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الأعشى:[٣]

إِنَّ مَحَــلاً وإِنَّ مُــــــــرْتَحَلاً ∴ وإِنَّ فى السَّفْرِ ما مَضَى مَهَــلا

اسْتَأْثَرَ الله بِالوَفَــــــاءِ وَبِالـــ ∴ ـحَمْدِ وَوَلَّــى المَلَامَةَ الــرَّجُلا

والأَرْضُ حَمَّالَــةٌ لمَــا حَمَّــلَ اللَّـــ ∴ ــهُ وَمَا إِنْ تَرُدُّ مــا فَعَــــلاَ

يَوْمًــا تَرَاهَــا كَــشِبْهِ أَرْدِيَـــةِ الـــ ∴ ـعَـصْب ويَوْمــاً أَدِيمُهَــا نَغَــلا

وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئا مستحسنا إلا قوله : [٤]

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ ولاَ ∴ يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفٍّ مَنْ بَخِــلاَ

١– الأنضاء : جمع نضو ، وهو الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها .

٢– ورد هذا البيت فى الشعر والشعراء: ج١ ص ٦٨ .

٣– انظر هذه الأبيات فى الشعر والشعراء: ج١ ص ٦٩ .

٤– المصدر السابق نفسه : الصفحة نفسها .

يريد أن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل . وهو معنى لطيف.

أما الجزء الثانى فجعله للحديث عن الشعر والتأريخ لشعرهم ، وذكر أنسابهم وقصائدهم ، وما اتصل بهم من روايات ، والمتأمل فى هذا القسم يلحظ أن اختيار ابن قتيبة لبعض شعر الشاعر اختيار عالم بالشعر عَرَّاف به، فقيه فيه ، فهو يختار فيحسن الاختيار ، وينقد فيحسن النقد، ويجيد، ويوازن بين الشعراء فيقيم الوزن بالقسط .

ومقدمة الكتاب من أعظم ما خلَّفه ابن قتيبة من الآثار الأدبية، لأنه وضع فيها مذهبًا جديدًا فى تقويم الشعر والشعراء.... وأن هذا المذهب يدل على أنه رجل جرئ ، مجدد ، ثائر على التقاليد النقدية العتيقة ، فقد نبذ التقليد جنبًا، وَقَوَّمَ الشعر من حيث هو شعر، بدون نظر إلى قائله، وهذا رأى خليق بالاعتبار (١)

وقد طبع لأول مرة فى ليدن سنة ١٨٧٥ ميلادية ، ثم طبع فيها مرة ثانية سنة ١٩٠٢ ميلادية ، ثم طبع فى مصر سنة ١٩٠٤ ميلادية مع بعض تعليقات من قبل الشيخ بدر الدين النعسانى الحلبى ، ثم صدر بتحقيق العلامة شيخنا أحمد محمد شاكر سنة ١٩٥٠ ميلادية ، ثم صدر بعد ذلك فى جزأين كبيرين سنتى " ١٩٦٦ و ١٩٦٧" الميلاديتين عن دار المعارف ، بمزيد من العناية والإتقان.

١- ابن قتيبة ، العالم الناقد الأديب : ص ١٤٧

ولقد اهتم المستشرق الفرنــسى " ديمــوبين Demombin " بمقدمة الكتاب ، فنشرها فى كتاب مستقل، ثم علق عليها بإســهاب باللغة الفرنسية .

٥- عيون الأخبار :

ويعد هذا الكتاب – فى رأينا – من أشهر كتبه ، بعد كتاب " أدب الكاتب " فقد قَدَّمَهُ للعامة والخاصة ، يقول فى مقدمته للكتاب : ولم أر صوابا أن يكون كتابى هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون سُوقتهم ، فوفّيت كل فريق منهم قِسْمه ووفَّرت عليه سهمه وأودعته طُرَفًا من محاسن كلام الزهاد فى الدنيا وذكر فجائعهــا والــزوالِ والانتقال وما يتلاقَوْن به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقــوا[١] ، إلا عَمن تراه لك حجة ولا تقدح فى صدرك منه الشكوكُ، وكــذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحــدَثين، قــسّمت هذه الأخبار والأشعار وصنفتها وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع فى عشرة كتب بعد الذى رأيت إفراده عنها وهو أربعة كتب متميز ، كل كتاب منها منفــرد علــى حدتــه ، كتــاب الشراب ، وكتاب المعارف ، وكتاب الشعر ، وكتاب تأويل الرؤيــا إذا كان متخيَّر اللفظ لطيف المعنى لم يُزْرِ به عندنا، تأخر قائله كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدّمه ، فكل قــديم حــديث فــى

١- انظر مقدمة كتاب الشعر والشعراء

عصره وكل شرف فأوّلَهُ خارجيُّهُ ، ومن شأن عوام النـــاس رفـــع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنـــوع وتعظـــيم المتقدّم وغُفران زلته وبخس المتأخر والتجنِّى عليه ، والعاقل مـــنهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ويزن الأمور بالقسطاس المـــستقيم (١).

فهذا الكتاب يحوى الكثير من الروايات والأخبار ، كما يقـــدم الأدب الرفيع متمثلاً فى روائع الشعر وبليغ النثر بما يمكن أن نقول إنه صورة حية للحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية آنذاك ، وهو يعكس ثقافة العصر الذى عاش فيه ابن قتيبة عن طريق تأثر الثقافة العربية بالفارسية وغيرها من الثقافات .

وقد قسمه ابن قتيبة إلى عشرة أبواب ، كل بـــاب ، ســـماه كتابًا ، وهذه الكتب هى : "كتاب السلطان ، كتاب الحرب ، كتـــاب السؤدد ، كتاب الطبائع ، كتاب العلم ، كتاب الزهد ، كتاب الإخوان ، كتاب الحوائج ، كتاب الطعام ، كتاب النساء".

الكتاب الأول : " كتاب السلطان"

وفيه الأخبار عن محل السلطان واخـــتلاف أحوالـــه وعـــن سيرته وعما يحتاج صاحبه إلى استعماله من الآداب فـــى صـــحبته وفى مخاطبته ومعاملته ومشاورته له وما يجب على الـــسلطان أن يأخذ به فى اختيار عُمّالِه وقُضَاتِه وحُجَّابه وكُتّابه ، وعلى الحكام أن

١– انظر مقدمة كتاب الشعر والشعراء

يمتثلوه فى أحكامهم وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

ومن أمثلة الأشعار المشاكلة لذلك قول الرياشى فى المشاورة بالرأى:

وعاجز الرأى مضياع لفرصته

حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فلابد من الأخذ بمبدأ المشورة امتثالاً لقوله تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ)[1]. لقد أدرك الشاعر أن الشعر جزء من كياننا الإنسانى، وهو من لا تستغنى عنه الحياة.

أما كتمان السر فقد الرسول صلى الله عليه وسلم :
"استعينوا على الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود"
نقول

إذا ما ضاق صدرك من حديث
فأَفْشَتْهُ الرجالُ فمن تلوم
إذا عاتبت من أفشى حديثى
وسرى عنده فأنا الظلوم
وإنى حتى أسأم حَمْل سرى
وقد ضمَّنته صدرى سؤوم

١- سورة آب عمران : آية ١٥٩.

وحين نمعن النظر فى هذه الأبيات نلحظ أنه لابد من كتمان السر وعدم الإباحة به، ولولا وجود بعض الهدامين له، لما فقد بعض الشعراء ثقتهم بالقيم الدينية التى دأبت الإنسانية على تركيزها فى الشعر. يجب أن نكون مدركين طريقة التفكير فى هذه الأمور بأنه لا مسئ من أعتب، والاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.

وقال عمور بن العاص: "ما استودعت رجلا سرًا فأفشاه فلمتَه، لأنى كنت أضيق صدرًا حينما استودعته، وعليه نقول:

وإذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها
فسرك عند الناس أفشى وأضيع

أما الحبس فإن الشكوى لله.

إلى الله أشكو إنه موضع الشكوى
وفى يده كشف المصيبة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها
فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

إنك إذا كتبت بيتًا واحدًا من الشعر الجيد يجب أن تكون قد شاهدت مدنًا وأشخاصًا، يجب أن نؤتى القدرة على استيعاب التفكير فى ضروب كائنة فى مناطق مجهولة، يجب أن نلتفت إلى الوراء نحو أيام الطفولة.

وهذا النوع من الشعر الدينى إذا تأملته تجد نفسك خاشعًا، فالشعر الدينى عند الشعراء المجددين هو أكبر دعامة لخلودهم،

وصفوة إبداعهم فى هذا الجانب، يجب أن يكون موضوع الحفاوة والانتفاع به حتى يعم السلام والطمأنينة فى قلوب البشر.

أما العفو فقالوا: "إن عاقبت جازيت، وإن عفوت أحسنت، والعفو أقرب للتقوى، نقول:

ألا إن خير العفو عفو معجل
وشر العقاب ما يجاز به القدر

وأجمل ما فى هذا البيت هو ذلك العفو الجارف، وتلك العاطفة الجياشة النابعة من خلجات النفس، حيث تلحظ العفو عند المقدرة.

يجب أن يكون للشعر دور إيجابى ونزعة هادفة فى المجتمع وأن يتابع الأحداث ويؤثر فيها، ويدفع بها إلى البناء والتجديد النفسى.

الكتاب الثانى " كتاب الحرب"

وفيه الأخبار عن آداب الحرب ومكايدها ووصايا الجيوش وعن العُدد والسلاح والكُرّاع، وما جاء فى السفر والمسير والطِّيَرة والفَأل ، وما يؤمر به الغزاة والمسافرون ، وأخبار الجبناء والشجعاء وحِيَل الحرب وغيرها وشئ من أخبار الدولة والطالبيِّن وأخبار الأمصار وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك حض الناس يوم اللقاء، فقد قال أبو بكر الصديق لخالد ابن الوليد حين وجهه: "احرص على الموت توهب لك الحياة" قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفـو ∴ س يوم الكريهة أرقـى لهـا

والبطولة تكمل إذا جمع صاحبها بـين الـشجاعة والجـرأة والخلق النبيل وقت القتال: وقال قطرى بن الفجاءة:

وقولى كلمـا جـشأت وجاسـت
مـن الأبطـال ويحـك لا تراعـى
فإنـك لـو سـألت حيـاة يـوم
سوى الأجل الذى لك لـم تطـاعى

فى هذين البيتين فاضت مشاعر الشاعر بكل هـذا الـشعر الرائع. فانفعل وتأثر فأنتجت قريحته هذين البيتين وغيرهما كثير.

أما الطيرة والفأل فقد قال الأصمعى: هرب بعض البصريين من الطاعون، فركب حمارًا له، ومضى بأهله نحو سفوان، فـسمع حاديًا يحدو خلفه وهو يقول:

لـن يـسبق الله علـى حمـار
ولا علـى ذى ميعـة مطَّـار
أو يأتى الحتـف علـى مقـدار
قـد يـصبح الله أمـام الـسارى

أما عن أخبار الجبناء فنقول:

للحرب قوم أضـل الله سـعيهم
إذا دعـتهم إلـى حوبائهـا وثبـوا
ولست منهم ولا أبغـى فعـالهم
لا القتل يعجبنى مـنهم ولا الـسلب

فى هذين البيتين نجد بعض القوم قد أضل الله سعيهم لأنهم يحاربون من أجل هدف تافه وهو السلب والسرقة، فينبغى علينا البعد عن أفعالهم الرذيلة والمنكرة.

الكاتب الثالث " كتاب السُّؤْدُد"

وفيه الأخبار عن مَخَايل السؤدُد فى الحَدَث وأسبابه فى الكبير ، وعن المهمة السامية والخِطَارِ بالنفس لطلب المعالى واختلاف الإرادات والأمانى والتواضع والكبر والعجب والحياء والعقل والحلم والغضب والعز والهيبة والذل والمروءة واللباس والطيب والمجالسة والمحادثة والبناء والمُزَاح وترك التصنّع والتوسط فى الأشياء وما يكره من الغلق والتقصير واليسار والفقر والتجارة والبيع والشراء والمُدَايَنة والشريف من أفعال الأشراف والسادة وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك أنه قيل لعرابة الأوسى: بم سددت قومك؟ قال بأربع: أنخدع لهم من مالى، وأذل لهم فى عرضى، ولا أحقر صغيرهم، ولا أحسد رفيعهم، قال الشاعر المقنع الكندى:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وليس إلى نصرى سراعًا وإن هم
دعونى على نصر أتيتهم شدا

وإذا أكلوا لحمى وفرت لحـــومهم
وإن هدموا مجدى بنيت لهـــم مجـــدا
يُعَيِّرنـــــى بالـــدين قـــوم وإنمـــا
ديونى فى أشـــياء تكـــسبهم حمـــدا

حين ندقق النظر فى هذه الأبيات نلحظ أن الـــشاعر يعـــالج مخايل السوء وأسبابه، فهو يؤكد على أنه لا يحمل الحقـــد لقومـــه وحينما يدعوه إلى نصرهم فيسرع إليهم.

وأنهم حينما يذمونه ويـــسبونه، فإنـــه يـــرد هـــذه الإســـاءة بالإحسان، ونزعته الدينية تجرى فى عروقه، يعيرونه بهـــا قومـــه، رغم أنه يكسب لهم الحمد والثناء.

ومن هنا نعرف أن الشاعر يتصف بالشهامة والكرم ونصرة قومه وقت الشدة، وهو مؤمن عميق الإيمان بأن لديه رسالة يـــدافع عنها على نحو ما سبق.

أما الهمة والخطار بالنفس فنقول:

الذل فى دعة النفـــوس ولا أرى
عز المعيـــشة دون أن يُـــشقى لهـــا

معنى هذا أننا لكى نعيش أعزاء فلابد من الجد والاجتهـــاد، لأن من يعش مسرورًا فليقنع، ومـــن أراد الـــذكر فليجتهـــد، قيـــل للعتابى: فلان بعيد الهمة، قال: إذن لا يكون له غاية إلا الجنة.

وإنى لأستحى من الله أن أرى
أطوف بأرض ليس فيها بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره
وبُعران ربى فى البلاد كثير

وفى الحديث الشريف عن ابن مسعود قال: كان آخر ما حُفظ من كلام النبوة: "إذا لم تستحى فاصنع ما شئت"

وقال سعيد بن المسيب سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: "قلة الحياء كفره"

أما عن الحلم والغضب فقد قال بعض المحدثين:

وإن الله ذو حلم ولكن
بقدر الحلم يُفتقد الحليم
لقد ولَّتْ بدولتك الليالى
وأنت معلق فيها نعيم
وزلت لم يعش فيها كريم
ولا استغنى بثروتها عديم
فبُعدًا لا انقضاء له وسحقًا
فَغَيَّر مسارك الحدث العظيم

لا يكفى أن نكون مدركين طريقة التفكير فى كل هذه الأمور، بل يجب أن نتريث ونتمهل وألا نثور ونغضب فكم من شاعر جيد الصياغة، غير قادر على التفكير فيما يشعر به، عديم

الإيمان بحقيقته، وذلك هو المقلد الذى يخرج شعرًا لا يهز وجدان القارئ.

الكتاب الرابع " كتاب الطبائع والأخلاق"

وفيه الأخبار عن تشابه الناس فى الطبائع وذمِّهم ، وعن مساوئ الأخلاق من الحسد والغِيبة والسِّعاية والكذب والقَحَة وسوء الخلق وسوء الجوار والسَّباب والبخل والحمق وتوارد الحَمْقى وطبائع الحيوان من الناس والجن والأنعام والسباع والطير والحشرات وصغار الحيوان والنبات وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

وقد قيل: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا"

قال أحد الشعراء:

الناس أَسْوَأ وشتَّى فى الشيم
وكلهم يجمعهم بيت الآدم

أما الحسد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد، قيل فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تَبْغ"

قال الطائى:

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طُويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتمال النار فيما جـــاورت
ما كان يُعرف طيب عــرف العــود
لولا التخوف للعواقب لـــم تـــزل
للحاســد النعمـــى علـــى المحــسود

إن الأمر هنا ليس أمر أبيات فـــى قــصيدة، ولا هـــو أمـــر القصيدة نفسها، وإنما هو أمر ارتعاشة الشاعر فى اللحظة الحاسمة، لحظة نورانية الخالق عندما يقف محلقًا فى سمائه الــشعرية مبــدلاً حاجته الراهنة بحقائق جوهرية.

وقيل للحسن البصرى أيحسد المؤمن أخاه؟ قال: لا أبًا لـــك، أنسيت إخوة يوسف، وكان يقال: أردت أن تسلم من الحاســد، فَعَـــم عليه أمورك، ويقال: إذا أراد الله أن يسلط علـــى عبـــده عـــدوًا لا يرحمه سلط عليه حاسدًا. قال الشاعر:

حَسَدُوا الفتى إذا لم ينالوا ســعيه
فـــالقوم عـــداء ولهـــم خـــصوم
كضرائر الحسناء قليلة لوجههـــا
حـــــسدًا وظلمـًــــا إنـــــه لـــــذميم

قال الأحنف: "لا وفاء لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا مروءة لبخيل، ولا سؤدد لسىء الخلق، وقال معاوية: "كل الناس أســتطيع أرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

نقول:

كل العداوة قـــد ترجـــى إماتتهـــا

إلا عداوة من عـــاداك مـــن حـــسد

إن تحسدونى فـــإنى لا ألـــومكم

قبلى من الناس أهل الفضل قد حُسِدوا

فالحسد أول ذنب عصى الله به فى الأرض، يعنى حسد ابـــن آدم أخاه حين قتله.

وقال الأصمعى: "رأيت أعرابيًا قد أتت له مائـــة وعـــشرون سنة، فقلت: ما أطول عمرك! قال: تركت الحسد فبقيت.

أما الغيبة والعيوب، فقال أبو الدرداء: "ليس من يوم أصـــبح فيه لا يرمينى الناس بداهية إلا كان نعمة من الله علىَّ".

قال حسان:

وإن امرءًا أمسى وأصبح سالمًا

من النـــاس إلا مـــاجنى لـــسعيد

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا عاب أحدكم أخـــاه فليستغفر الله"

وقال أحد الشعراء:

لا تلتمس من مساوئ الناس ما ستروا

فيكـــشف الله ســـترًا مـــن مـــساويك

أما السعاية فقد قال الأعشى:

ومن يطع الواشين لا يتركوا لـــه

صـــديقًا وإن كـــان الحبيـــب المقـــرب

أما الكذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يصلح الكذب إلا فى ثلاثة مواضع: الحرب فإنها خدعة، والرجل يصلح بين اثنين، والرجل يرضى امرأته"

وقال الأحنف: اثنان لا يجتمعان أبدًا : "الكذب والمروءة"

وقال أيضًا لابنه: "اتخذ الكذب كنزًا، أى لا تخرجه"

قال الشاعر:

حسب الكذوب من البلية
بعض ما يحكى عليه
مهما سمعت بكذبة
من غيره نُسِبت إليه

أما سوء الخلق وسوء الجوار والشر فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن سوء الخلق والبخل" وقيل: يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: "سوء الخلق"

قال الشاعر:

قوما إذا أكلوا أخفوا كلامهم
واستوثقوا من رتاج الباب والدار
لا يقيس الجار منهم فضل نارهم
ولا تكف يدٍ من حرمة الجار

أما الحمق فقد قال عمر بن الخطاب: "إياك ومؤاخاة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك"

ومن حمقى العرب كلاب بن صعصعة، خرج إخوته يشترون خيلا، وخرج معهم كلاب، فجاء بعِجْل يقوده، فقال له إخوته: ما هذا؟ فقال: فرسًا اشتريته، فقالوا: يا مائق هذه بقرة، أما ترى قرنيها!! فرجع إلى بيته فقطع قرنيها، فأولادُهُ يدعون "بنى فارس البقرة"

ولقد أحدث رجل من الحمقى ذات ليلة على باب رجل، فلما خرج الرجل زلق، فوقع على ذراعيه فانكسرت، فاجتمع الجيران وجعلوا يختصمون ويوقعون الظنون، وهو ناحية يسمع كلامهم، فلما أكثروا قال:

رأيت الحرب يجنيها رجال
ويَصلَى حرها قوم براء

فأخذوه وقالوا: أنت صاحبنا.

ولما حضر الحطيئة الوفاة، قال: "احملونى على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم قط، فلعلى أن أبقى، ثم تمثل:

لكل جديد لذة غير أننى
رأيت جديد الموت غير لذيذ

وقيل له: أوصه، قال: بم أوصى؟ مالى للذكور دون الإناث، فقالوا: إن الله يأمر بهذا، لكنى آمر به، ثم قال: ويل للشعر من راوية الشعر، فقيل له: أوص يا أبا مليكة للمساكين بشئ، قال أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور. قيل أعتق عبدك يسارًا. قال: اشهدوا أنه عبد ما بقى، قيل: فلان اليتيم أوص له. قال

أوصى أن تأكلوا ماله و أمه. قالوا: ليس إلا هذا!! قال: احملــونى على الحمار.

الكتاب الخامس " كتاب العلم "

وفيه الأخبار عن العلم والعلماء والمتعلمــين وعــن الكتــب والحفظ والقرآن والأثَر والكلام فى الدين ووصايا المُؤدِّبين والبيــان والبلاغة والتلطف فى الجواب والكلام وحسن التعريض والخُطــب والمقامات وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

يقال: "لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإن ظــن أن قــد علم فقد جهل"

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تعلم العلم لأربعــة دخل النار، ليباهى به العلماء، أو يمارى به السفهاء، أو يميــل بــه وجوه الناس، أو يأخذ به من الأمراء.

قال أحد الشعراء:

يُعَد رفيع القوم من كــان عالمًــا
وإن لم يكن علــى قومــه بحــسيب
وإن حلَّ أرضًا عاش فيها بعلمــه
ومــا عــالم فــى بلــدة بغريــب

ويقال: "أول العلم الصمت، والثانى الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العقل، والخامس نشره، ويقال : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

وفى حكمة لقمان، إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار، وإن العالم الأخرق يطرد الناس من علمه بالهذر والإكثار.

قال الشاعر:

شفاء العمى طول السؤال وإنما
تمام العمى طول السكوت على الجهل

أما الإعراب واللحن فقد قال ابن سيرين: ما رأيت على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة أحسن من شحم.

قيل لأعرابى: أتهمز إسرائيل؟ قال إنى إذًا لرجل سوء، قيل له: أتجر فلسطين؟ قال : إنى إذًا لقوى، وقيل لآخر: أتهمز الفارة؟ فقال : الهمزة تهمزها.

وقال مسلمة بن عبد الملك: "اللحن فى الكلام أقبح من الجدرى فى الوجه"

دخل أعرابى السوق فسمعهم يلحنون، فقال سبحان الله، يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!!

وقال شاعر فى جارية له:

أول ما أسمع منها فى السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث المذكر

أما البيان فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرًا، فاطلبوا الصلاة وأقصروا فى الخطب" وقال العباس: يا رسول الله فيم الجمال؟ قال فى اللسان.

وقال الإمام على – كرم الله وجهه : "تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه"

ومعنى هذا الكلام أن عقل الإنسان مخبوء تحت لسانه، فلا شئ أولى بطول حسن من لسان يقصر عن الصواب، ويسرع إلى الجواب، ولا حاجة بالعاقل إلى التكلم إلا لعلم ينشره، أو غنم يكسبه، وهذا ما عبر عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قال: "رحم الله من قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم"

ويقال عقل المرء مدفون تحت لسانه، وقال الشاعر:

كفى بالمرء عيبًا أن تراه

له وجه وليس له لسان

معنى هذا أن اللسان يعد مقومًا من مقومات شخصية الإنسان، ويقال: الصمت أبلغ من عيٍّ ببلاغة.

أقول:

أرى الصمت أدنى لبعض الصواب

وبعض التكلم أدنى لعيِ

وقال أبو نواس:

مُتُ بداء الصمت خيرًا ∴ لك من داء الكلام

إنما السالم من ألـ ∴ ـجم فاه بلجام

إن المتأمل فى قول أبى نواس يلحظ أن امتداح الصمت مطلوب، والثناء على محبيه واجب.

الكتاب السادس " كتب الزهد "

وفيه الأخبار عن صفات الزُّهَّاد وكلامهم فى الزهد والدعاء والبكاء والمناجاة وذكر الدنيا والتهجد والموت والكبَر والشيب والصبر واليقين والشكر والاجتهاد والقناعة والرضا ومقامات الزُّهَّاد عند الخلفاء والملوك ومواعظهم وغير ذلك وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار .

من ذلك قول الشاعر:

وإنى لأدعو الله والأمر ضيق
عَلَىّ فما ينفعك أن يتفرجا
ورُبَّ فتى سُدَّتْ عليه وجوهه
أصاب له فى دعوة الله مخرجا

قال الأصمعى: أول شعر قيل فى ذم الدنيا قول ابن خذاق:

هل للفتى من بنات الدهر من راقى؟
أم هل له من حمام الموت من واقى،
قد رجَّلُونى وما رُجِّلت من شعث
وألبسونى ثيابًا غير أخلاقى
وطيبونى وقالوا إنما رجل
وأدرجونى كأنى على مخراق
هَوِّن عليك ولا تولع بإشفاق
فإنما مَالُنا للوارث الباقى

وحين نمعن النظر فى هذه الأبيات نجد أن معانيها مبتكرة صادقة وتعنى بالجو النفسى للألفاظ، كما أنها تتسم بتركيز الأسلوب حيث جمعت بين الخبر والإنشاء بغرض الإثارة والتشويق وجذب الانتباه وإشراك القارئ مع السامع والتعبير عن حقائق ثابتة لا تقبل الجدل والشك.

ومن شعر الوعظ قول أبى العتاهية:

ألا إنما التقوى هى العز والكرم
وحبك للدنيا الذل والندم

الكتاب السابع " كتاب الإخوان "

وفيه الحث على اتخاذ الإخوان واختيارهم والأخبار عن المودة والمحبة وما يجب للصديق على صديقه ومخالقة الناس وحسن محاورتهم والتلاقى والزيارة والمعانقة والوَداع والتهادى والعيادة والتعازى والتهانى وذكر شرار الإخوان وذكر القرابات والولد والاعتذار وعيب الإخوان وتعاديهم وتباغضهم وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

فمن الحث على اتخاذ الإخوان واختيارهم قول ابن الأعرابى:

لعمرك ما مال الفتى بزخيرة
ولكن إخوان الثقات الذخائر

وقال أيوب السختيانى: "إذا بلغنى موت أخٍ لى فكأنما سقط عضو منى، قال الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخًا له ∴ كساع إلى الهيجا بلا سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ∴ وهل ينهج البازى بغير جناح؟

وأما ما يجب للصديق على صديقه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للمسلم على المسلم خصال ست: "يُسَلِّم عليه إذا لقيه ويجيبه إذا دعاه، ويُشَمِّته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويحضر جنازته إذا مات، ويحب له ما يحب لنفسه".

قال كثير:

ومن لا يُغَمِّض عينه عن صديقه ∴ وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهدًا كل عثرة ∴ يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقال آخر:

إذا ما صديقى رابنى سوء فعله ∴ ولم يك عما ساعدنى بمُفيق
صبرت على أشياء منه تربينى ∴ مخافة أن أبقى بغير صديق

وأما الإنصاف فى المودة فقال أبو العتاهية:

إذا لم يكن لك حسن فهم ∴ أسأت إجابةً وأسأت سمعًا
ولست الدهر متسعًا بفضل ∴ إذا ما ضقت بالإنصاف ذرعًا

أما العتاب فنقول:

ولا خير فى قُربى لغيرك نفعها ∴ ولا فى صديق لا تزال تعاتبه
يخونك ذو القربى مرارا وربما ∴ وفى لك عند الجهد من لا تناسبه

وأما عيادة المريض فقد كتبتُ إلى مريض:

نبئت أنك مُعْتل فقلت لهم ∴ نفسى الفداء له من كل مخدور
يا ليت علته بى غير أن له ∴ أجر العليل وأنى غير مأجور

وقال صلى الله عليه وسلم: "إتمام عيادتكم المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على رأسه أو يده فى يده، ويسأله كيف هو، وتمام تحياتكم المصافحة.

وأما التعازى وما يتمثل به فيها فنقول:

اصبر لكل مصيبة وتجلَّد ∴ واعلم بأن الدهر غير مخلد
أو ما ترى أن الحوادث جمَّة ∴ وترى المنية للعباد بمرصد
وإذا أتتك مصيبة تشقى بها ∴ فاذكر مصابك بالنبى محمد

أما التباغض والعداوة فقد قيل لأفلطون : بماذا ينتقم الإنسان من عدوه؟ قال: بأن يزداد فضلا فى نفسه. قال دريد:

وما تخفى الضغينة حيث كانت ∴ ولا النظر الصحيح من السقيم

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: اعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله.

قال الشاعر:

احذر عدوك مرة ∴ واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق ∴ فكان أعلم بالمضرة

الكتاب الثامن " كتاب الحوائج "

وفيه الأخبار عن استنجاح الحوائج بالكتمان والصبر والجِدّ والهدِيَّة والرشوة ولطيف الكلام ومن يُعتَمَد فى الحاجة ومن يُستسعَى لها والإجابة إلى الحاجة والرد عنها والمواعيد وتنجُّزها وأحوال المسئولين عند السؤال فى الطَّلاَقة والعُبُوس والعادة من

المعروف تُقْطَع والشكر والثناء والتلطيف فيهما والترغيب فى قضاء الحوائج واصـطناع المعـروف والحـرص والإلحـاح والقناعـة والاستعفاف وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المـشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود"

قال أبو اليقظان: "كان بنو ربيعة يوصون أولادهم فيقولـون: استعينوا على الناس فى حوائجكم بالتثقيل عليهم، فذلك أنجح لكم.

قال الشاعر:

إن الأمـور إذا انـسدَّت مـسائلها ∴ فالصبر يفتح منها كل ما ارتُجيا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ∴ ومدمن القرع للأبواب أن يلجـأ
لا تيأسـنَّ وإن طالـت مطالبـة ∴ إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا الحوائج إلـى حسان الوجه"

قال أحد الشعراء:

لا تطلبن إلـى لئـيم حاجـة ∴ واقعد فإنك قاعـد كالقاعـد
يا خادع البخلاء عن أمـوالهم ∴ هيهات تضرب فى حديد بارد

والعرب تقول لمن جاء خاليًا ولم يظفر بحاجته: "جاء على غبيراء الظهر"(١) وجاء بخُفَّى حنين، وجاء على حاجبيه صُوفة، وإن جاء وقضيت حاجته، قالوا: جاء ثانيًا من عِنانه".

وإن جاء ولم تقض حاجته، وقد أصيب ببعض ما معه، قالوا: "ذهب يبتغى قرنًا فلم يرجع بأذنين".

وتقول لمن اعتذر بالمنع بالعُدْم وعنده ما سئل "أبى الحقين العِذْرة".(٢)

وقيل إن أصله أن رجلاً ضاف قومًا فاستسقاهم لبنًا، وعندهم لبن قد حقنوه فى وطب فاعتذروا أنه لا لبن عندهم، فقال: "أبى الحقين العِذْرة"، ويقال: العِذْرة طرف البخل. قال إسماعيل القراطيسى فى الفضل بن الربيع:

لن أخطأت فى حقك ∴ ما أخطأت فى منعى
لقد أخللت حاجاتى ∴ بواد غير ذى زرع

أما عن شرار الإخوان فقد كتب إبراهيم بن العباس إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

وكنت أخى بإخاء الزمان ∴ فلما نبا صَرَتْ حربًا عوانًا
وقد كنت أشكو إليك الزمان ∴ فأصبحت فيك أسب الزمانا
وكنت أعدُّك للنائبات ∴ فها أنا أطلب منك الأمانا

وقال المثقب العبدى:

---

(١) غبيراء الظهر : الأرض، أى جاء لا يصاحبه غير أرضه التى يجيئ ويذهب فيها.

(٢) الحقين: اللبن الحقوق، العِذرة بالكسر: العذر.

فإما أن تكون أخى بــصدق ∴ فاعرف منك غثى من ثمينى
وإلا فـــاجْتَنِبنى واتخـــذنى ∴ عـــدوًا أتقيـــك وتتقينـــى

وعن المواعيد وتنجُّزها فإن العرب تضرب المثل فى الخُلف بعرقوب. قال ابن الكلبى عن أبيه "كان عرقوب رجلاً من العماليق، فأتاه أخ له فسأله شيئا، فقال له عرقوب: إذا أَطْلَع تخلى، فلما أَطْلَع أتاه، قال: إذا أبْلَحَ أتاه، فقال : إذا أزهى، فلما أزهى أتاه، قـــال: إذا أرْطَب، فلما أرْطَب أتاه، قال إذا صار تمرًا، فلما صار تمرًا جَـــدَّه من الليل، ولم يعط أخاه شيئًا.

قال الأشجعى:

وَعَدتِ وكان الخلف منك سجيةً ∴ مواعيد عرقوب أخاه بيتـــرب

وتقول العرب فيما اصطنع معروفًا ثم أفسده بالمَنِّ، أو قطعه حين كاد يتم: "شوى أخوك حتى إذا أنضج رمَّدَ".

وتقول فيمن اغتنم الشئ من البخيل ولو كان نزرًا: "خذ من الرَّضفة ما عليها"[١] ومثل هذا نقول:

خذ القليل من اللئـــيم وذُمَّـــه ∴ إن اللئيم بمـــا أتـــى معـــذور

أما الترغيب فى قضاء الحاجة فقد قال ابن عباس : "صاحب المعروف لا يقع، فإذا وقع وجد متكأ، هذا نحـــو قـــول رســـول الله صلى الله عليه وسلم: "صنائع المعروف تقى مصارع السوء"

(١) الرصفة: الحجارة المحماة يوغر أى (يُسَخَّن بها اللبن، وهى إذا ألقيت فى اللبن لزق بها شئ منه).

وقال رجل لبثينة: "إذا اتخذتم عند رجل يدًا فانسوها، وقالوا: المنة هدم الصَّيْعَة، قال أحد الشعراء:

أفسدتَ بالمن ما أسديت من حَـسَن ∴ ليس الكريم إذا أسـدى بمنَّـانٍ
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى ∴ لشرب صبوح أو لشرب غَبُوق

وأما الحرص والإلحاح فقد ورد فى كتاب كليلة ودمنـة: "لا فقر ولا بلاء كالحرص والشَّرّه، ولا غنى كالرضـا والقناعـة، ولا عقل كالتدبير، ولا وَرَع كالكف، ولا حسب كحـسن الخلـق، قـال أعرابى:

أيها الدائب الحريص المُعَنَّى لك رزق وسوف تستوفيه
قبّح الله نائلاً ترجيه من يَدَّى مـن تريـد أن تقتـضيه
إنما الجود والسماح من يعطيك عفوًا وماءً وجهك فيـه
لا ينال الحريص شيئًا فيكفيه وإن كان فوق ما يكفيـه
فسل الله وحده وَدَع الناس وأسـخطهم بمـا يرضـيه
لا ترى مُعطيًا لما منـع اللهُ ولا مانعًا لمـا يعطيـه

الكتاب التاسع " كتاب الطعام "

وفيه الأخبار عن الأطعمة الطيبة والحَلْواء والسَّوِيق واللـبن والتمر والخبائث منها التى يأكلها فقراء الأعراب ، ونازلـة الفقـر وأدب الأكل وذكر الجوع والصوم وأخبـار الأَكَلَـة والمَنْهُـومين والدعاء إلى المآدب والضيافة وأخبار الـبخلاء بالطعـام وسياسـة الأبدان بما يصلحها من الغذاء والحِمْية وشـرب الـدواء ومـضارّ

الأطعمة ومنافعها ومصالحها ونُتَف من طَبِّ العرب والعجم وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك أن الأصمعى قال: كنا عند الرشيد فقدَّمت إليه فالوذجة[١] فقال : يا أصمعى حدثنا بحديث مُزوِّد، فقلت إن مُزَوِّدًا أخا الشماخ كان غلاماً جشعًا، وكانت أمه تؤثر عيالها بالطعام عليه، وكان ذلك يحفظه[٢] فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها، فدخل مزوِّد الخيمة، وعمد إلى صَاعَىّ دقيق، وصاع من تمر، وصاع من سمن، فجمعه ثم جعل يأكله، وهو يقول:

ولما غَدَت أمى تميز نباتَها
أغْرَتْ على العِكم[٣] الذى كان يُمنع
لبَكَّتْ بصاعى حِنطة صاع عجوة
إلى صاع سمن فوقه يتربَّع[٤]
ودبَّلتْ أمثال الأثافى[٥] كأنها
رؤس نِقاد[٦] قُطِّعتْ يوم تجمع
وقلت لبطنى أبشر اليوم إنه
حمى أمِّنا مما تحوز وترفع

(١) الفالوذجة: حلواء يسوى من لب الحنطة (فارسية معربة).

(٢) يحفظه: يغضبه.

(٣) العِكم : بكسر العين : النمط تجعله المرأة كالوعاء تدَّخر فيها متاعها.

(٤) يتربع: لا يستقر له وجه لكثرته.

(٥) الأثافى: مفردها الأثفية وهى أحجار ثلاثة توضع عليها القدر.

(٦) نِقاد: مفردها نقدة وهى الصغيرة من الغنم، والذكر والأنثى فى ذلك سواء.

فإن كان مصفورًا[١] فهــذا دواؤه
وإن كان غرثانًا[٢] فــذا يــوم تــشبع

أما الجوع والصيام فقد قدم أعرابــى علــى ابــن عــم لــه بالحضور، فأدركه شهر رمضان، فقيل له: أبا عمرو لقد أتاك شهر رمضان، قال: وما شهر رمضان؟ قالوا: الإمساك عن الطعام، قال: أبالليل أم بالنهار؟ قالوا: لا: بل بالنهار، قال: أفيرضون بــدلاً مــن الشهر؟ قالوا: لا، قال : فإن لم أصم فعلوا ماذا؟ قــالوا: تُــضْرب وتُحْبس، فصام أيامًا فلم يصبر، فارتحل عنهم وجعل يقول:

يقول بنو عمِّى وقد زرت مصرهم ∴ تهيأ أبا عمرو لشهر صــيام
فقلت لهم هاتوا جرابــى ومزقــوه ∴ سلام عليكم فــاذهبوا بــشلام
فبادرت أرضًا ليس فيها مــسيطر ∴ علىَّ ولا منَّاع أكــل طعــام

وأدرك أعرابى شهر رمضان فلم يصم، فعذلته امرأته فــى الصوم، فزجرها وأنشأ يقول:

أتأمرنى بالصلاة لأدرَّ دُرُّهــا ∴ وفى القبر صوم يا أميم طويل

أما عن الضيافة وأخبار البخلاء على الطعام فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخير أسرع إلى مطعم الطعام من الشفرة فى سنام بعير. سئل أَقْرَى أهل اليمامة الــضيف: كيــف ضــبطتم القِرى؟ قال: بأنا لا نتكلَّف ما ليس عندنا.
وقال الخزيمى:

---

(١) مصفورًا: أى به صُفر، وهو داء فى البطن يصفر منه الوجه.
(٢) الغرثان: الجائع.

أضاحك ضـــيفى قبـــل إنـــزال رحلـــه
ويُخـــصب عنـــدى والمحـــل جـــضيب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى[١]
ولكنَّمـــــا وجـــــه الكـــــريم خـــــصيب

الكتاب العاشر " كتاب النساء" وفيه الأخبار عـــن اخـــتلاف النساء فى أخلاقهنّ وخَلْقهنّ وما يُختار منهن للنكـــاح ومـــا يُكـــره واختلاف الرجال فى ذلك، والحسن والجمـــال والقـــبح والدَّمامـــة والسواد والعاهات والعجز والمـــشايخ والمُهُـــور وخِطَـــب النكـــاح ووصايا الأولياء عند الهِدَاء وسياسة النساء ومعاشرتهنّ والـــدخول بهنّ والجماع والولادات، وما جاء فى ذلك مـــن النـــوادر وأبيـــات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار. من ذلك قول بعض المحـــدثين فـــى الحسن والجمال:

الخال يقـــبح بـــالفتى فـــى خـــده
والخـــــال فـــــى خـــــد الفتـــــاة ملـــــيح
والشيب يحسن بالفتى فـــى رأســـه
والـــــشيب فـــــى رأس الفتـــــاة قبـــــيح

أما مهور النساء فقد جاء خاطب إلى قوم، فقال: أنا فلان ابن فلان، وأنتم لا تسألون عنى أعلم بى منكن، قـــالوا: صـــدقت. فمـــا تبذل؟ فأنشد يقول:

ألا أبلـــغ لـــديك بنـــى يزيـــد

(١) القِرى : ما يقدم للضيف.

بـــأنى لا أريـــد إلـــى النـــساء

سِوَى وُدِّى لهــن وأنَّ عنـــدى

ثريـــــدًا بالغـــــداة وبالعـــــشاء

أما وصايا الأولياء للنساء فقد قال أبو الأسود الدؤلى: لابنته: إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزيــن زينـــة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء، وكونى كما قلت لأمك فى بعض الأحاديث:

خذى العفو منـــى تـــستديمى مـــودتى

ولا تنطقى فى ســـورتى حـــين أغــضب

فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى

إذا اجتمعـــا لـــم يلبـــث الحـــب يـــذهب

أما سياسة النساء ومعاشرتهن فقد قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم: "إنما المرأة خلقت من ضلع عوجاء، فإن تحرص علـــى إقامتها تكسرها فدارها تعش بها"

ولقد مرت أعرابية بقوم من بنى نمير، فأداموا النظر إليهـــا، فقالت: يا بنى نمير، والله ما أخذتم بواحدة من اثنتين، لا، بقـــول الله تعـــالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ)(١) ولا، بقـــول جرير:

فغض الطرف إنـــك مـــن نميـــر

---

(١) سورة النور : آية/٣٠.

فـــــــلا كعبًا بلغت ولا كلابــا

فاستحيا القوم من كلامها وأطرقوا.

بات أعرابى ضيفًا لبعض الحضر، فــرأى امــرأة فَهَــمَّ أن يخالف إليها[١] فمنعه الكلب، ثم أراد ذلك نصف الليل فمنعه ضـــوء القمر، ثم أراد ذلك فى السحر فإذا عجوز قائمة تصلى فقال:

لم يخلق الله شيئًا كنـــت أكرهـــه
غيرَ العجوز وغيرَ الكلب والقمر
هذا يبوح وهـــذا يستـــضاء بـــه
وهـــذه شـــيخة قَوَّامـــة الـــسحر

أما الغزل فقد قال أبو صخر الهزلى:

أما والذى أبكى وأضـــحك والـــذى
أمان وأحيا والـــذى أمـــره الأمـــر
لقد تركتنى أحسد الـــوحش أن أرى
أليفين منهمـــا لا يروعهمـــا الـــذَّر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المـــدى
وزدت على ما لم يكن بلغ الهجـــر
ويا حبها زدنى جـــوى كـــل ليلـــة
ويا سلوة الأيـــام موعـــدنا الحـــشر
وصلتك حتى قيل لا يعرف القلـــى
وزرتك حتى قلت ليس لـــه صـــبر

(١) القِرى : ما يقدم للضييخالف إليها: يجئها خفية، وفى غفلة من الرقباء.

عجبت لسعى الدهر بينـــى وبينهـــا
لما انقضى ما بيننـــا ســكن الـــدهر
إذا ذُكرتْ يرتـــاح قلبـــى لـــذكرها
كما انتفض العصفور بـــاله القطـــر
هل الوَجْد إلا أن قلبـــى لـــو دَنَـــا
من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر

لقد تنوعت موسيقى هذه الأبيات وتناسقت مـــع العواطـــف، وتآلفت أفكارها، فبدت صورها قريبة من الحقيقة، فلا هى صـــور خيالية رومانتيكية حالمة، ولا هى ضبابية تتحدى الذكاء والفطنة.

ويبدو تأثر ابن قتيبة فى هذا الكتاب بإســـلوب الجـــاحظ ت "٢٥٥ ه" فى كتابه البيان والتبيين ، فالجاحظ عقد كتابه – وإن كان فيه قدر من الاستطرادات – للدفاع عن العـــرب ضـــد ادعـــاءات أعدائهم من الموالى ، وابن قتيبة عقد كتابه – وإن كان أحيانا يميل إلى التسلية والفكاهة – لكى ينير الطريق أمام المتأدب ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة ، وسيرة قويمـــة وأدب كـــريم ، وخلق عظيم ..[١]

وقد طبع " عيون الأخبار " فى فابير – ستراســـبورج ســـنة ١٩٠٠ – ١٩٠٨م " بتحقيق المستشرق كـــارل بروكلمـــان، وهـــذه الطبعة مكونة من أربعة أجزاء ، ثم طبعته دار الكتب المـــصرية . وتوالت طبعاته فيما بعد ، وآخرها طبعة " ١٩٧٣م" .

١– ابن قتيبة ، مقدمة عيون الأخبار

٦- المعانى الكبير :

ذكره ابن النديم باسم " معانى الشعر الكبير " [١] بيد أن المؤلف أشار فى كتابه " عيون الأخبار " إلى أن اسمه " أبيات المعانى " [٢] قائلاً : " وقد فسرت هذا الشعر فى كتابى المؤلف فى أبيات المعانى فى خلق الفرس " [٣] .

ويضم هذا الكتاب بين دفتيه القصائد والمقطوعات الشعرية ، وبعض الأبيات المتفرقة فى ثناياه ، وهو فى رأينا – عظيم الفائدة ، لأنه فسر الأبيات الشعرية ، وشرحها، كما أنه استفاض فى الأشعار الغريبة مع بيان معانيها . وفى الكتاب اثنا عشر بابًا سَمَّى ابن قتيبة كل باب منها كتابًا ، وهى: " كتاب الخيل ، كتاب السباع ، كتاب الطعام والضيافة ، كتاب الذباب ، كتاب الوعيد والبيان ، كتاب الحرب ، كتاب الميسر ، كتاب فى وصف الشعر والشعراء ، كتاب التطير والفأل ، كتاب فى وصف الآثار والآداب ، وكتاب مكارم الأخلاق ".

وقد طبع المعانى الكبير فى حيدر أباد – الدكن – سنة ١٣٦٨ هـ فى مجلدين ، بعناية ومراجعة المستشرق الدكتور كرنكو krinkou .

١- الفهرست : ص ١١٥.

٢- أبيات المعانى تعنى فى اصطلاح الأدباء ما كان باطنه يخالف ظاهره ، وإن لم يكن فيه شئ من غريب اللغة "

٣- عيون الأخبار : ج١ ص ١٥٨.

٧- غريب الحديث :

ذكره معظم من ترجم لابن قتيبة [١] وواضح من اسمه أنه يشتمل على الأحاديث الغريبة ، قام بشرحها مؤيداً رأيه بما ذكره علماء المدرستين البصرية والكوفية ، كما أنه فسر دلالة بعض الألفاظ مثل الكافرين ، والظالمين ، والصلاة ، والزكاة إلى آخره .....

وقد طبع لأول مرة فى العراق سنة ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧م" فى مطبعة العانى التابعة لوزارة الأوقاف ، بتحقيق الدكتور عبد الله الجبورى .

٨- تأويل مختلف الحديث :

وواضح من اسمه أنه يفسر الأحاديث المختلفة والتى أشكل فهمها ، والهدف من تأليفه هذا الكتاب هو التعرف على الأحاديث المتناقضة ، وتصحيح بعضها ، تلك التى ادعى عليها المتكلمون التناقض.

وقد طبع فى القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ" فى مطبعة كردستان العلمية باسم " تأويل مختلف الحديث " ثم نشره الشيخ محمد زهرى النجار فى مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م.

١- تاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧٠ ، الفهرست : ص ١١٦ ، وفيات الأعيان : ج٣ ص ٤٢ ، معجم الأدباء : ج٤ ص ٣٤.

٩- المعارف :

وقد سجل فيه ابن قتيبة فنونًا كثيرة من المعارف ، يقول فى مقدمته له : " وكتابى هذا يشتمل على فنون كثيرة من المعارف ، أولها مبتدأ الخلق ، وقصص الأنبياء ، وأزمانهم ، وحُلاهم ، وأعمارهم .... إلى آخره [١]

والكتاب يبرز اهتمام ابن قتيبة بالتاريخ عن طريق إعطاء معلومات عن الأحداث المهمة التى تخصه ، وهو كذلك يعبر عن اهتمام ابن قتيبة بكتب السير والمغازى ، والطبقات التى أُلِّفت قبله.

وفى رأينا ، أن هذا الكتاب يعد من كتب الثقافة الإسلامية ، التى تهدف إلى التعرف على قصص الأنبياء والمرسلين وصفاتهم وأعمارهم ، وغير ذلك .

وقد طبع لأول مرة بعناية ومراجعة المستشرق الألمانى اف ويستنفلد wustenfeld سنة " ١٨٥٠" الميلادية، ثم توالت طبعاته فيما بعد ، أفضلها طبعة دار المعارف بالقاهرة ، بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة .

١٠- الأنواء :

وقد ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة [٢] تحدث فيه ابن قتيبة عن علم الميقات عند العرب ، والسُّحب ، والبَرق ، ومساقط النجوم ،

١- نظر مقدمة كتاب المعارف .

٢- بغية الوعاة: ج٢ص ٢٦٣ ، إنباه الرواة: ج٢ص ١٤٦، وفيات الأعيان: ج٣ص ٤٣

ومواقع الكواكب وأسمائها ، والأزمان وتحديـــدها ، وتنبـــؤات العـــرب الفلكية والجوية ... وغير ذلك .

ونظن أن ابن قتيبة كان يرحل إلى الأعراب الفصحاء فى البادية – الذين لهم دراية فى علم الفلك – يستقى منهم معلومات هذا الكتاب .

ويذكر الدكتور عبد الحميد الجندى ، نقلاً عن الأدب الفارســـى "Literory History Of Persia" أن بعض المستشرقين مـــن علمـــاء الفلك ، وعلى رأسهم إدوارد بـــروان "E. Broune" يعتبرون ابن قتيبة من كبار علماء الفلك .

ونحن نؤيدهم فى هذا الرأى ، على أساس أن كتاب " الأنواء" فيه معلومات صادقة عن النجوم والكواكب وأسمائها إلى آخره ... ، ومما يعضد كلامنا هذا ويدعمه ، أنه كـــان يرحل إلى العرب الفصحاء ليستقى منهم مادة كتابه.

١١- الميسر والقداح :

ذكره معظم مترجمى ابن قتيبة [١] ومن مقدمة الكتاب نعرف أنه صنفه استجابة لرغبة أحد مُريديه ، الذى أبدى لـــه حاجتـــه فـــى التعرف على نفع الميسر ، وأسماء القداح عند العرب[٢].

ويبدو لنا اهتمام ابن قتيبة بالمفردات اللغوية ، وتفسير دلالة بعض الألفاظ ، ومما يؤيد هذا ، تفسيره لآيات الخمر .... وبعض الأبيات الشعرية التى جمعها فى الميسر.

١- وفيات الأعيان: ج٣ ص ٤٣، وإنباه الرواة: ج٢ ص ١٤٦، والفهرست:ص ١١٦

٢- انظر مقدمة كتاب الميسر والقداح.

وقد نشر الكتاب محققًا لأول مرة الشيخ محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٣هـ وطبعه بالمطبعة السلفية بالقاهرة ، ثم طُبع مرة أخرى سنة ١٣٨٥هـ.

١٢- المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة :

ذكره معظم من ترجم لابن قتيبة [١] ومن عنوانه نفهم أنه عبارة عن أسئلة فيها ألفاظ عربية ، وجهها ابن قتيبة لأحد تلاميذه ، ثم يجيب عليها ، مفسرًا دلالة بعضها ، ويعد هذا الكتاب – فى رأينا – من الكتب اللغوية التى أثرى بها ابن قتيبة المكتبة اللغوية .

والمسائل والأجوبة كتاب صغير الحجم نُشر فى مكتبة المقدسى سنة ١٩٤٩ ، ثم نشر بعد ذلك فى مجلة المورد البغدادية فى العدد الرابع ، سنة ١٩٧٤م [٢].

١٣- الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة

وقد ذكره كثير ممن ترجموا لابن قتيبة [٣] وذكره السيوطى باسم " الرد على المشبهة" [٤].

وفى الكتاب ، راح ابن قتيبة يفسر بعضًا من الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة التى اختلف فى فهم معانيها ، هذا من خلال

١- إنباه الرواة: ج٢ ص ١٤٦، وفيات الأعيان: ج٣ ص ٤٣ ، الفهرست: ص ١١٦

٢- مجلة المورد البغدادية ، العدد الرابع ، لسنة ١٩٧٤م

٣- إنباه الرواة : ج٢ ص ١٤٦ ، والفهرست : ص ١١٦.

٤- بغية الوعاة : ج٢ ص ٦٣.

رده على الجهمية والمشبهة ، ومن ثم نفهم من عنوانه أنه ألفه للرد عليهما بأدلة من الكتاب والسنة .

وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧١م ، وطبع أيضًا سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٣٠م ضمن منشورات مكتبة المقدسى بالقاهرة .

١٤- تلقين المتعلم من النحو:

وقد ذكر بعض مترجمى ابن قتيبة أن له كتابًا فى النحو، وأنه خُلط عليه بحكايات عن الكوفيين ، لم يكن يأخذها عن ثقات ، وكان يتسرع فى أشياء لا يقوم بها . نحو تعرضه لتأليفه كتابًا فى النحو[١] بيد أن أغلب مترجميه أكد أن له كتابين فى النحو " جامع النحو الكبير " و جامع النحو الصغير" [٢] .

وقد نص بروكلمان على أن له كتابًا بعنوان "تلقين المتعلم من النحو"[٣] ومن مقدمة كتابه "تلقين النحو" نعرف أنه ألفه من أجل التعليم والإفادة لطلاب العلم ، حيث يقول: "هذا كتاب تلقين المتعلم من النحو ، وفيه إفادة للعالم وتفهم للمتعلم ، وأول ما يُبْتدأ به التلقين

١- أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين : ص ١٣٧.

٢- الفهرست : ص ٨٦ ، وتاريخ بغداد : ج١٠ ص ١٧٠ ، وإنباه الرواة : ج٢ ص ١٤٦ ، وبغية الوعاة ج٢ ص ٦٤.

٣- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى : ج٢ ص ٢٢٩.

إعراب "بسم الله الرحمن الرحيم" وأول ما يُلقّن المتعلم معرفة الحركات من الرفع والنصب والجر...[١]

وحين قرأناه، وجدناه يكرر لفظ " ما يُلقّن المتعلم كثيرا، فهو يقول – مثلاً – باب ما يلقن من حروف الجر [٢] "وباب ما يضاعف من الحروف وكيف يلقن المتعلم إياها؟"[٣]

وأنت – كما ترى – تلحظ أننا ركزنا على إيضاح هذا الكتاب نظرًا لأهميته فى الدراسات النحوية .

وقد حقق " كتاب تلقين النحو " الدكتور جمال عبد العاطى مخيمر ، وعلق على مسائله وشواهده ، وظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م ، فى مطبعة وهبه حسان ، بالقاهرة .

وهناك عدد آخر من كتبه ، لم تصل إلينا ، لكن ورد ذكرها فى أغلب المصادر التى ترجمت لابن قتيبة وبيانها :

١٥- كتاب إعراب القرآن ١٦- كتاب النخل
١٧- كتاب الأشربة ١٨- كتاب إصلاح الغلط فى غريب الحديث
١٩- كتاب العلم ٢٠- كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها

١- ابن قتيبة ، تلقين المتعلم من النحو : ص ٣٥.
٢- المصدر السابق : ص ٦١
٣- المصدر السابق : ص ٥١ .

٢١- كتاب جامع الفقه
٢٢- كتاب التقفية
٢٣- كتاب القلم
٢٤- ديوان الكُتَّاب
٢٥- خلق الإنسان
٢٦- دلائل النبوة
٢٧- الجوابات الحاضرة
٢٨- كتاب الصيام
٢٩- آلة الكُتَّاب
٣٠- الحكاية والمحكى
٣١- كتاب الوحش
٣٢- كتاب الجراثيم
٣٣- حكم الأمثال
٣٤- آداب العِشْرة
٣٥- صناعة الكتابة
٣٦- التفسير
٣٧- تأويل الرؤيا
٣٨- معجزات البنى صلى الله عليه وسلم
٣٩- معانى القرآن
٤٠- كتاب الفُرْس
٤١- عيون الشعر
٤٢- كتاب القراءات
٤٣- آداب القراءة
٤٤- كتاب الوزراء
٤٥- فوائد الدر

المبحث الثالث

بين أدب الكاتب وإصلاح المنطق

نحن إذا تبينا عنوان الكتاب " أدب الكاتب" وجدنا الكثير من الباحثين يسارعون بأيديهم وأذهانهم للبحث فيه على أساس أنه كتاب أدب ، يتناول دروب ذلك الفن ومسالكه ، ولكنهم يـصابون بخيبـة الأمل ، عندما يدركون أنه كتاب لغة ، فإذا ما حاولوا الانتفاع بـه احتاجوا إلى الجهد والعناء وإشحاذ الذهن حتى يتسنى لهم الغـوص فى أبوابه ، وذلك أنه كتاب لغة ، يحمل منها ما يحتاج إلـى سـبر الغور والتنقيب والتمحيص فى تلك اللغة الحية المتطورة.

ولقد زعم الزاعمون ، وتعالت أصوات أهل العلم ، يقولون " إن كتاب أدب الكاتب " خطبة بلا كتاب ، و "إصلاح المنطق " كتاب بلا خطبة ، وهذا فيه نوع من التجوز، فإن "أدب الكاتب" قد حـوى من كل شئ وهومفنن ، وما أظن حملهم على هـذا القـول إلا أن الخطبة طويلة ، والإصلاح بغير خطبة[١].

بل ، لقد ذهب آخرون إلى أن كتاب "أدب الكاتب" ما هو فى الحقيقة إلا استنساخ مبتور من كتاب "إصلاح المنطق" إذ ضمنه ابن قتيبة معظم الأبواب التى وضعها ابن السكيت فى كتابيه " الألفـاظ"

---

[١] – ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج ٣ ص٤٢.

وإصلاح المنطق" [١] منكرين بذلك جهود ابـن قتيبـة وفـضله ، واصمين إياه بالجحود ونكران الجميل ، إذ إنه لم ينكر فى مقدمـة كتابه فضل ابن السكيت ، وفى كل ذلك إجحاف وعدم إنصاف.

وبالرغم من أن هذا الموضوع الذى نحن بـصدده ، لـيس بالموضوع الذى يستحق الخلاف ، ولكن إحقاقًا للحق وبعـدًا عـن التعصب سأبينُ حقيقة هذا بإيجاز ، ودون إسراف.

أما أن "أدب الكاتب" خطبة بلا كتاب ، فلـى وجهـه نظـر مبعثها ذلك التقديـم القيم الذى صَدَّر به ابن قتيبة مصنفه ، واضعاً النقاط فوق الحروف مبيناً سبل الإفادة من تأليفه لهذا الكتاب ، بأنه يعالج داءً قد استشرى فى لغة العرب ، وهو داء اللحن والخطأ فى الكلام ، وأنه خشى على اللغة أن تنحدر ، أو يقـل إدراك النـاس لدقائقها ، ومعرفة الفروق بين مترادفاتها ، وعلى قدر الحاجة يكون المدد ، فإن زاد أسرف، وإن نقص أخل ، وما نراه إلا قـد وَفَّـى بالغرض الذى من أجله صنف مصنفه ، فقد ألفه من أجـل تهـذيب الكُتَّاب وإرشادهم إلى سنن الصواب ، ذلك أنهم قد أهملوا النظر فى العربية ، وجهلوا الكثير من مسائلها ، فكان هذا الكتاب القيم – فعلاً – بمثابة المرشد اللغوي الذي يكفل النجاح، لمن أخـذ بأشـراطه، وعمل بما نَوَّهَ عليه ، حتى يخلق كُتَّابًا نـابهين، ولأمـور الكتابـة حاذقين ، ولمعرفة قواعد رسم الكلمات فاهمين.

---

[١] – ابن السكيت ، مقدمة إصلاح المنطق : ص ١١.

فعلى الرغم من أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية فى تلك الآونة – أعنى القرن الثالث الهجرة الذى عاش فيه ابن قتيبة – وفى تلك الأقاليم الإسلامية الجديدة ، وعلى الرغم من توافر العلماء على دراستها والتأليف فيها واصطناعها فى الآداب ، لم تسلم من انتشار اللحن والتغيير والانحراف على ألسنة العامة ، بل على ألسنة الخاصة كذلك – أعنى الكُتَّاب والولاة والوزراء– ومما يؤيد هذا أن من يرجع إلى مقدمة أدب الكاتب يجد أن لغة المكاتبات الرسمية التى تصدر على ألسنة الخلفاء والوزراء لم تسلم من تسرب اللحن والخطأ والتصحيف والانحراف والبعد عن اللغة الفصحى [١] فاللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب ، والجدرى فى الوجه [٢] والسبب فى نشوء هذا اللحن – فى نظرنا – يرجع إلى اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، فنتج عن ذلك الاختلاط أن كثر اللحن وشاع الخطأ وتسربت العجمة ، حيث بدأ الأعاجم يتخذون اللغة الفصحى لغة لهم ، وحيث بدأ العرب يتزوجون من غير العربيات ومن هنا بدأ اللحن ، فالأعجمى حديث العهد باللغة العربية الفصحى ، ولسانه لا يطاوعه على النطق ببعض حروفها وكلماتها نطقًا سليمًا ، ثم أخذ اللحن يشيع حتى بعد وضع قواعد النحو وأصوله وقوانينه ، بل يقال إنه ما وضعت قواعد النحو إلا بسببه ،

[١]– انظر مقدمة أدب الكاتب : ص ٦ وما بعدها.

[٢]– د: رمضان عبد التواب ، لحن العامة والتطور اللغوى: ص ٩.

ثم بدأ اللحن يسرى أيضاً على ألسنة الخاصة أنفسهم ، أعنى بـــذلك الخلفاء والولاة وكتابة الدواوين.

فهذا موقف من المواقف المخزية يدل على جهـــل الكُتَّـــاب باللغة الفصحى ، فيحكى عن أحمد بن عمار كاتب الخليفة المعتصم [١] – الذى عاصره ابن قتيبة – حين ورد عليه كتاب فيه " ومطرنا مطرًا كثير عنه الكلأ فسأله الخليفة المعتصم . وما الكلأ ؟ فتردد فى الجواب وتعثر لسانه [٢] وها هو الجواليقى يوضح لنا دلالـــة هـــذا اللفظ ، يقول : " قال أبو محمد بن عبد الملك : الكلأ ، النبات كلـــه رطبه ويابسه ، والرطب خاصة يقال له خلى ، واليابس يقـــال لـــه حشيش " [٣] .

وكاتب آخر هو شجاع بن القاسم ، قرأ على المستعين كتابا ، ذكر فيه " حاضر طيئ" فصحفه تصحيفاً أضحك منه الحاضرين" [٤] قال الجواليقى " صحف هذه اللفظة فقال : " جاء ضرطى"[٥] .

---

[١]– الخليفة المعتصم : هو الابن الثالث للرشيد ، وقد استكثر من الأتراك والفرس حتى ضاقت بهم بغداد ، فاضطر لأن ينشئ لهم مدينة جديدة هى سامراء " سر من رأى " سنة ٢٢١هـ ، وأراد أن يجلعها العاصمة الرسمية لملكه.

[٢]– ابن قتيبة ، أدب الكاتب : ٦ وما بعدها .

[٣]– الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص ٤٣.

[٤]– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب : ص ٧.

[٥]– الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص ٤٣.

وكاتب آخر يجهل الألفاظ الموضوعة فى وصف برذون [١] أهداه ، وقد بعثت به إليك أبيض الظهر والشفتين، فقيل له لو قلت أرثم ألمظ ، قال : فبياض الظهر ما هو ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : إنما جهلتَ من الشفتين ما جهلتم من الظهر[٢] قال الجواليقى : " والبرذون من الخيل ما كان من غير نتاج العِرَاب ، والأنثى برذونة .... وإذا إبيضت جحفلة الفرس العليا فهو أرثم وإذا ابيضتْ جحفلته السفلى فهو ألمظ ، فأراد أبيض الظهر ، فهو أرحل ، وقيل الأرحل الذى موضع ملبده بياض من البلق "[٣] .

ونفهم مما سبق أن الكتاب جهلوا الألفاظ الموضوعة لبياض جحفلة الفرس " شفته وبياض ظهره" ، وهى الأرثم والألمظ والأرحل" .

وآخرون من الكتاب تغيب عنهم الفروق الدقيقة بين مدلولات الألفاظ "فلا يستطيعون التفريق بين الوكع والكوع ، ولا الحنف من الفدع ، ولا اللمى من اللطع"[٤] قال الجواليقى : " الوكع ميل إبهام الرجل على الأصابع حتى تزول فيرى شخص أصلها خارجًا .... والكوع اعوجاج اليد من قبل الكوع ، وهو رأس الزند الذى يلى الإبهام .... والحنف إقبال كل واحدة من الإبهامين على صاحبتها فى قول الأصمعى ، وقال ابن الأعرابى: الأحنف الذى

١– البرذون : يعنى الفرس غير العربى.

٢– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب : ص ٧.

٣– الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص ٤٤.

٤– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب : ص ٨.

يمشى على ظهر قَدَمية ، والفدع ، قال الأصمعى: أن تميل الكف على وحشيها ، واللمى سمرة فى الشفة تضرب إلى السواد ، واللطع له موضعان، أن تذهب الأسنان وتبقى أصولها ، واللطع أيضًا من الشفاه بياض يصيبها"(١)

ونستخلص من كل ما سبق أن الذى دفع ابن قتيبة لتأليف "أدب الكاتب" هو أن يأخذ بأيدى هؤلاء الكُتَّاب وغيرهم ممن يجهلون الفروق الدقيقة بين الألفاظ ومدلولاتها، فلا يستطيعون التفريق بينها وبين مدلولاتها ، ومن ثم لم يكن هدف ابن قتيبة وغيره ممن ألفوا فى لحن العامة أن يسجلوا لنا شيئا من مظاهر تطور اللغة ، بل كان همهم الأكبر هو إعادة هؤلاء الخارجين على الفصحى إلى حظيرة اللغة القديمة .... بأن يجمعوا طائفة من الألفاظ التى يخطئ فيها الناس فى زمانهم ، ويبرهنوا على خطئها ، بالرجوع إلى المادة التى جمعها اللغويون الأوائل من أفواه العرب"(٢).

ومن مقدمة الكتاب ، نعرف أن ابن قتيبة وضعه لبيان ما يجب أن يكون عليه كُتَّاب الديوان ، وما يحتاج إليه فى صناعة الكتابة من مختلف العلوم والثقافة .

١- الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص ٤٥ وما بعدها.

٢- د: رمضان عبد التواب ، لحن العامة والتطور اللغوى: ص ٦٤ وما بعدها.

ويبدو أن صلة ابن قتيبة بوزير الدولة "عبيد الله بـــن يحيـــى ابن خاقان الذى تولى الوزارة فى عهدى المتوكل والمعتمد من سنة ٢٣٦ هـ إلى سنة ٢٥٦هـ ، "هى التى هيأت له وضع هذا الكتـــاب ، فتوسل به إليه ، وأحسن صلته ، واصطنعه ، وقدمه للمتوكـــل ، وأحسن الثناء عليه عنده ، حتى صرفه المتوكل إلى بعض عمله" [١] ومعنى هذا أن ابن قتيبة أَلَّفَ أدب الكاتب لأبى الحسن عبيد الله ابن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله ابن المتوكل على الله الخليفة العباسى.

ولما كانت اللغة وسيلة التفاهم بين الأفراد ، وحاملة المعانى التى تدور بشأنها المكاتبات فى أى عصر من العصور، ولما كـــان الكُتَّاب يجهلون التفريق بين الألفاظ ومدلولاتها مما كان ســـببًا فـــى وقوعهم فى بعض الأخطاء ، فلم يكن بُدَّ – والحـــال كـــذلك – أن يسخط ابن قتيبة على طبقة هؤلاء الكتاب وأولئك – الذين تـــسربت لغة التخاطب ، والحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى، محاولاً الأخـــذ بأيديهم إلى مواطن الصواب ، مرشدًا وهاديا لهم لجهلهـــم الـــشنيع باللغة الفصحى ، على النحو الذى تقدمت بعض نماذجه.

وبناء على ما سبق فإن ابن قتيبة صنف مصنفه لأهل زمانه الذين انصرف أكثرهم عن طلب الأدب ، وأهملوا النظر فى علوم الفقه والتفسير والفرائض واللغة والنحو " .

---

[١] – ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب ، هامش : ص ٥.

أما أن كتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت كتاب بلا خطبة ، فقد يكونون قد ذهبوا مذهب الصواب ، إلا أننا نزعم أن ابن السكيت ، إنما عَدَلَ عن الخطبة على اعتبار أن قارئ مصنفه يتميز بالفطنة والذكاء ، خصوصًا أن مصنفه هذا لم يكن إلا من أجل طبقة المعلمين لإصلاح ما فسد من منطق المتعلمين ، وهو إن قَصَّرَ فى هذا فإنه أفاض فى الكتاب مما حوى ، إذ ضمنه من اللغة ما وسعه الجهد والإدراك ، من وضع متشابه الكلم ومختلفه وتصنيفه فى أبواب ارتآها ، والتى زعم الزاعمون بعد ذلك أن ابن قتيبة نقل معظمها ، ورغم نقله أنكر وأغفل فِكر سابقيه وفضلهم.

وحقيقة ذلك ليست كذلك ، إذ إن درجات العرفان تتفاوت باختلاف الأنفس ووجهات النظر ، فإنه إن كان يحمد للسابقين جهودهم على ما حفظوا ، أو دونوا ، فقد نالوا ما هدفوا إليه ذلك الحمد من خلال المكانة ، أو العطايا، وما نحمده لهم من قبيل التفضل من المعاصرين أو العرفان بالجميل كل حسب رؤياه ...

أما عن تلك الاستفادة والنقل من ابن السكيت ، فنحن لا ننكر هذا ولا يؤخذ عليه ذلك ، إذ إن من الطبيعى أن تتوارث العلوم ، فيستفيد اللاحقون من السابقين ، فأستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب ذكر أن ابن قتيبة يلخص كلام ابن السكيت بلفظه ، ولم يعترف بذلك ابن قتيبة[١].

---

[١]- د: رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوى: ص١٦٢ وما بعدها

ثم استدل على ذلك بالأمثلة التى أوردها ابن قتيبة فى "باب ما جاء بالصاد وهم يقولونه بالسين" [١] وقارنها بأمثلة ابن السكيت فى " باب ما يتكلم فيه بالصاد مما يتكلم به العامة بالسين ومما يتكلم فيه بالسين ، فيتكلم فيه العامة بالصاد " [٢].

ويُبَيِّنُ أستاذنا أيضًا أن هذا ليس مقصورًا على هذا الباب، بل إن المرء ليحس به فى أبواب كثيرة ، ولا سيما تلك التى يتفق عناوينها فى الكتابين " [٣]. وحقيقة الأمر أنه عند إمعان النظر فى " أدب الكاتب" ومراجعته على إصلاح المنطق، نجد أن ابن قتيبة نقل – بالفعل كما ذهب أستاذنا الدكتور رمضان – من إصلاح المنطق ، وهذا يكون على اعتبار السبق والمعاصرة ، وهى استفادة لا يمكن إنكارها بأية حال من الأحوال ، ولكن لم نصم ابن قتيبة بما ليس فيه ، فهو عالم ، فقيه ، لغوى ، نحوى ، اتسم بالورع والتقى ، وسعة الاطلاع ، وقوة الحجة ، وطول الباع ... فكيف نصفه بأنه نقل عن ابن السكيت معظم أبواب كتابه " إصلاح المنطق" وننسى أن الذكاء الإنسانى يتسم بالتشابه الفطرى فى بعض معالجات الأمور ؟!

وحقيقة أخرى وهى أن ابن قتيبة اطلع على إصلاح المنطق " على اعتبار السبق والمعاصرة ، التى دفعت أهل العلم إلى هذا

---

[١]– ابن قتيبة ، أدب الكاتب : ص ١٣٤.

[٢]– ابن السكيت ، إصلاح المنطق من : ص ١٨٣ : ص ١٨٥.

[٣]– د: رمضان عبد التواب ، لحن العامة : ص ١٦٢ وما بعدها.

التوهم ، فابن السكيت ، توفى عام (٢٤٤هـ) وابن قتيبة توفى عـــام (٢٧٦هـ) وبين هذا وذاك "٣٢" عاما، ظل ابن قتيبة فيها باحثًا للعلوم على اختلاف مصادرها ومنابعها ، ورغم هذا الاطـــلاع لا نجـــزم بصحة ما ذهبوا إليه ، بل لا يمكن أن نقبل منه إلا ما تأكدنا منـــه ، إذ إن ابن قتيبة قد أورد فى كتابه بعضًا من العناوين التى استعملها ابن السكيت ، ولكنه لم يدرج تحتها ما أدرجه ابن الـــسكيت رغـــم تقارب المنظور الذى أشارت إليه هذه العناوين.

ومما يؤيد صحة ما ذهبنا إليه ، أننا بعـــد أن اطلعنـــا علـــى مقدمة " أدب الكاتب" يطالعنا عنوان فى كتاب المعرفة وهو "باب ما تضعه الناس فى غير موضعه" [١]وهو نفس العنوان فى " إصـــلاح المنطق" باب ما تضعه العامة فى غير موضعه " [٢].

وبتناول هذين البابين عند كليهما ، وجدنا أن ابن قتيبة يرشد إلى جهة الطريق السليم ، متفـــردًا بذاتيتـــه المـــصطبغة بالـــصبغة الخاصة المعتمدة على التحديد ، وهذا لا يؤخذ عليه ، إذ إنـــه مـــن الطبيعى أن تتوارث العلوم ، فيستفيد اللاحقون من السابقين ، وهـــو فى هذا الباب لا يتناول مما أورده ابن السكيت إلا لفظتى : [المَلَّة] و [خرجنا نتنزه] وحين مقارنة ذلك ، نجد أنه قد اختلـــف عنـــه فـــى تناولهما.

---

[١]– ابن قتيبة ، أدب الكاتب : ص ١٧ : ص ٣٦.

[٢]– ابن السكيت ، إصلاح المنطق من ص ٢٨٤ : ص ٢٨٧.

يقول ابن قتيبة : و المَلَّة" يذهب الناس إلى أنهـــا الخبـــزة ، فيقولون أطعمنا ملة ، وذلك غلط ، إنما الملـــة موضـــع الخبـــزة ، وسمى بذلك لحرارته ، ومنه قيل فـــلان يتملمـــل علـــى فراشـــه ، والأصل يَتَمَلَّل ، فأبدل إحدى اللامين ميمًا ، يقال مَلَلْتُ الخبز فـــى النار أملها ملاً ، والصواب أن تقول أطعمنا خبز مَلَّة "[١] .

ويقول ابن السكيت : أكلنا ملة ، وإنما الملة الرماد الحـــار، قال الشاعر [٢]:

لا أشتم الضيف إلا أن أقول له

أباتك اللهُ فى أبيات عمـــار

أباتك الله فى أبيـــات معتنـــز

عن المكارم لا عف ولا قار

جلد الندى زاهد فى كل مكرمة

كأنمـــا ضيفه فى ملة النـــار

١– أدب الكاتب : ص ٣٢ وما بعدها.

٢– وردت هذه الأبيات فى إصلاح المنطق : ص ٢٨٥.

وحين عقد مقارنة بين هذين العالمين فى استعمالهما للفظ " الملة " يتضح لنا ما يلى :-

اللفظ	تحليل ابن السكيت	تحليل ابن قتيبة
الملة	١- قال ابن السكيت : أكلنا ملة.	١- قال ابن قتيبة :الملة يذهب الناس إلى أنها الخبزة، فيقول:أطعمنا ملة
	٢-الملة : الرماد الحار .	٢- الملة : موضع الخبزة .
	٣- لم يعلل السبب فى تسمية اللفظ بهذا الاسم.	٣- علل لذلك قائلاً : سمى بذلك لحرارته.
	٤- لم يشر إلى الأصل الاشتقاقى للفظ	٤- أشار إلى أصله الاشتقاقى قائلاً: "ومنه قيل فلان يتململ على فراشه" .
	٥- لم يلمح ولم يتنبه إلى الإبدال بين اللام والميم.	٥- ألمح إلى إبدال اللام ميما قائلاً : والأصل يتملل، فأبدل من إحدى اللامين ميماً
	٦- استدل على اللفظ ببيت من الشعر العربى.	٦- لم يستدل.

وحين نمعن النظر فى هذه المقارنة بينهما للفظ " المَلَّة" نجد أن ابن السكيت عندما أورد لفظ " الملة " قال : أكلنا ملة " " وإنما الملة الرماد الحار " دون أن ينتبه على الصواب والخطأ فى استعمال العامة لها ، كما أنه لم يعلل السبب فى تسميتها مَلَّة ، بخلاف ابن قتيبة فإنه بعد أن أورد اللفظ ، نَبَّهَ إلى أن العامة – فى زمنه – كانوا يستعملونه استعمالاً خطأ فيقولون " أطعمنا ملة " ثم نَبَّهَ إلى صوابه قائلا : وذلك غلط : "إنما الملة موضع الخبزة" ولم يكتف بتصويبه فحسب ، لكنه ذكر السبب فى تسميته " ملة" قائلاً سمى بذلك لحرارته . هذا بالإضافة إلى أنه بَيَّن الأصل الاشتقاقى للفظ قائلا: ومنه قيل فلان يتململ على فراشه. كما أنه – بحسه المرهف وشفافيته– ألمح إلى إبدال اللام ميمًا فى اللفظ نفسه قائلا : والأصل " يتملل" فأبدل من إحدى اللامين ميمًا . وهذا يدلنا دلالة قاطعة على تذوقه لمخارج الحروف وصفاتها ودقة ذوقه اللغوى وحسه المرهف ودقة ملاحظاته ، وقدرته الفائقة على التحليل والاستنباط.

وبالرغم من كل ما قيل ودار فيه الخلاف ، فلابن قتيبة اليد الطولى فى مصنفه الذى أضفى عليه منطقية العالم، العارف ، المتبحر فى علوم اللغة ، المتمسك بالمنهج الانتقائى فى دراسته للغة – فمثلا – لو تأملنا بعض أبواب " إصلاح المنطق" مثل :

- باب فَعْل وفِعْل باختلاف المعنى مثل " الحَمْل والحِمْل"[١]

- باب فِعْل وفَعْل باتفاق معنى مثل " السِّلْم والسَّلْم " [٢].

- باب فِعْل و فُعْل باختلاف معنى مثل " الكِيْر والكُوْر" [٣].

نجد أن بن قتيبة قد أبرز دقة ملاحظاته ، وقدرته على إدراك الفروق اللغوية البسيطة والتصنيف المبنى على الحجة والتوضيح واستقصاء النظر ، وعنايته بالوجوه المختلفة فى ضبط بنية اللفظ ، والذى يرجع معظمه إلى اختلاف اللهجات العربية – وإن لم ينسبها إلى أصحابها – فيعقد بابًا ينتقى من تلك الأبواب السابقة ما يقع تحتها هذا ، فلو تأملت ودققت النظر لوجدت نماذجه المختارة من "إصلاح المنطق" أبسط من أن تكون محور اهتمام بالاقتباس، فقد عَنْوَنَ لبابه فى كتاب تقويم اللسان بقوله : "باب الحرفين يتقاربان فى اللفظ وفى المعنى ويلتبسان ، فربما وضع الناس أحدهما موضع الآخر" [٤].

ومن ناحية أخرى ، نلحظ فى كتاب الأبنية ، بعد أن يستفيض فى شرح معانى "فعلت وأفعلت – مثلا – يعود إلى صيغة أفعلت ، ليعدد معانيها مرة ثانية " [٥] ونحن نلتمس له ذلك لأنه –

[١]– إصلاح المنطق من ص ٣ : ص ٣٠.

[٢]– المصدر السابق من ص ٣٠ : ص ٣٢.

[٣]– المصدر السابق من ص ٣٢ : ص ٣٦.

[٤]– أدب الكاتب من ص ٢٣٨ : ص ٢٤٨.

[٥]– أدب الكاتب من ص ٣٤٢ : ٣٤٨.

فى رأينا – قصد إلى الجمع بين الجانبين المعجمى القائم على الحشد والجمع ، والتقعيدى القائم على التقنين ، فهو فى الموضع الأول اكتفى بسرد الأفعال على صيغة أفعل وسرد معانيها كذلك ، ثم عاد ليولى اهتمامه ببناء الكلمة ، فقصد إلى معنى بناء اللفظ.

وأياً ما كان الأمر فإن بحثه فى أبنية الأفعال والأسماء بحثًا علميًا، قائمًا على الاستقراء والتتبع ، وهو بذلك لم يهدف إلى محاولة حصر الأبنية فحسب ، فهذا أمرٌ قام به السابقون عليه ، ولكنه اهتم بذكر الأبنية التى تعدد ضبطها فحصرها ومَثَّلَ لها ، كما اهتم أيضًا بالأبنية النادرة فى كلام العرب ، والتى لم يأت على نظيرها إلا كلمة ، أو كلمتان ، أو ثلاث ، على نحو ما أورده – فيما نقله عن الأصمعى – وهو قوله : "ليس فى كلام العرب" فِعَلل " بكسر الفاء وفتح اللام ، إلا حرفان " دِرْهَم " و هِجْرَع" وهو الطويل المفرد فى الطول [١].

وهنا نلحظ أن بن قتيبة لم يكتف بإيراد اللفظة ووزنها ، لكنه راح يشرح لنا دلالتها قائلا : هِجْرَع" هو الطويل المفرد فى الطول . وإذا صَحَّ هذا الظن يكون لابن قتيبة قصب السبق فى التأليف المعجمى على حساب نظام الأبنية ، وإن مهد له هذا الطريق أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٣هـ) فى أبواب الغريب المصنف ، وسيبويه ، والمبرد ".

١– أدب الكاتب : ص ٤٨١.

والمقياس الصوابى عند عالمنا ابن قتيبة هو تسجيل الألفـــاظ من أفواه الفصحاء من الأعراب ، وهـــو بهـــذا يُعَـــدُّ فـــى زمـــرة المتشددين من اللغويين الذين لا يقبلون إلا الفصيح ، ولا يتعـــاملون إلا بالأفصح من الألفاظ والتراكيب والجمل والعبارات، ويرفـــضون ما عداه ، ويعدونه لحنا وخطأ وغلطًا وانحرافًا.

ومما يؤيد ذلك قوله : " فلان يتصدق " إذا أعطى " "وفـــلان يتصدق" إذا سأل ، وهذا غلط ، والصواب "فـــلان يـــسأل" وإنمـــا المتصدق المعطـــى" [١] قـــال الله تعـــالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [٢].

ومن ذلك قوله : "ليس فى الكلام " فُعلى "إلا بالألف واللام ، أو بالإضافة ، نحو "الصغرى" و "الكبرى" ولا تقل هذه امرأة صغرى ، كما لا تقول : "هذا رجل أصغر" حتى تقول "أصغر منك" وتقول "هذه الصغرى ، وهذا الأصغر"[٣].

وعلى الطرف الآخر ، يقيس ابن قتيبة على ما جاء شاذًا أو نادرًا، مما دفع البطليوسى إلى لومه على هذا الصنيع ، لأنه جعـــل أشياء من لحن العامة ، وعَوّلَ فى ذلك على ما رواه أبو حاتم عـــن

---

[١]- أدب الكاتب : ص ٢١ وما بعدها.

[٢]- سورة يوسف : آية ٨٨.

[٣]- أدب الكاتب : ص ٤٨٠.

الأصمعى ، وأجازها غير الأصمعى من اللغويين كابن الأعرابى ، وأبى عمـــر الشيبانى ... [١].

ونحن نرى أن هذا لا يؤخذ عليه ، لأن علماءنـــا القــدامى أجازوا القياس ، يقول العلامة ابن جنى "فالناطق على قياس لغـــات العرب مصيب غير مخطئ ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه"[٢] ومن أمثلة القياس على النادر عند ابن قتيبة قوله : " أهل الحجـــاز يقولون : " القُصوى" بالواو ، والقياس " القُصْيَا " بالياء مثل العليا ، وهو من علوت ، والدنيا من دنوت ، وهـــذا نـــادر خـــرج علـــى الأصل"[٣] .

---

[١]- البطليوسى ، الاقتضاب فى شرح أدب الكُتَّاب : ج١ ص ٢٠.

[٢]- ابن جنى ، الخصائص : ج٢ ص ١٤ .

[٣]- أدب الكتاب : ص ٤٨٨.

الخاتمة

وبعد... فلقد كان مفيدا بعد أن حاولنا بعون الله وتوفيقه إنجاز هذا البحث أن نستخلص النتائج الآتية:

١- يعد ابن قتيبة من العلماء الذين أثروا الفكر الإنساني بالعديد من المؤلفات النفيسة في مختلف علوم اللغة والنحو والحديث والتفسير والفقه والشعر، كلها تهدف إلي التعليم والإفادة ، فقد استهدف تعليم الجهال ممن يدعون العلم ، وكشف المتطاولين على القيم الدينية ، وهم أجهل الناس بمكانتها.

٢- أتقن ابن قتيبة ثقافة العصر الذي عاش فيه ، والمعارف المحيطة به من عربية وفارسية ويونانية وهندية ونبطية ، فاكتسبت تلك العقلية المنظمة التي جعلت كتبه ومؤلفاته تتسم بالاتزان .

٣- يعد ابن قتيبة أول من جمع بين مذهبي الكوفة والبصرة في النحو والصرف ، ولا يقوم بهذا العمل إلا من اتقن المذهبين وعرف الأصول التي تبني عليها العلل والمقاييس عند المدرستين.

٤- قدم ابن قتيبة الأدب الرفيع متمثلا في روائع الشعر وبليغ النثر بما يمكن أن نقول إنه صورة حية للحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية آنذاك ، ومن ثم عكس لنا أن قتيبة ثقافية عصره عن طريق تأثر الثقافة العربية بغيرها من الثقافات، وهو في كل هذا ينير الطريق أمام المتأدب ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم .

٥- عالج ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب داء قد استشري في لغة العرب هو داء اللحن والخطأ في الكلام، والذي يرجع إلي اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخري فنتج عن ذلك الاختلاط أن كثر اللحن وشاع الخطأ وتسربت العجمة .

٤- أن الأمر ليس أمر أبيات في قصيدة ، ولا هو أمر القصيدة نفسها ، وإنما هو أمر ارتعاشة الشاعر في اللحظة الحاسمة ، لحظة نورانية الخالق عندما يقف محلقا في سمائه الشعرية مبدلا حاجته الراهنة بحقائق جوهرية.

٥- اتهم البعض ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب بالاقتباس من ابن السكيت في كتابه إصلاح المنطق ، ولكنك ــ بقليل من النظر ــ تلحظ أن نماذجه المختارة من إصلاح المنطق أبسط ما يكون من أن تكون محور اتهام بالاقتباس، لأن ابن قتيبة له اليد الطولي في معالجة العديد من الموضوعات التي أوردها ابن السكيت في ثنايا مؤلفه إصلاح المنطق، أضفي عليها ابن قتيبة منطقية العالم العارف المتبحر في علوم اللغة، المتمسك بالمنهج الانتقائي وذلك من خلال دقة ملاحظاته، وقدرته على إدراك الفروق اللغوية البسيطة ، والتصنيف المبني على التقنين.

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، دار صادر بيروت، ط ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

٢- إسحاق موسى الحسينى "دكتور" ، حياة ابن قتيبة وأعماله ، ترجمه إلى العربية هاشم ياغى، بيروت، ط ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م

٣- الإشبيلى ، فهرست ماروواه عن شيوخه ، نشره : زيدين طرقوه، ط٢ مطبعة طومس، سرقسطة ١٣٩٣ هـ .

٤- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المدنى ، القاهرة ، د.ت.

٥- البطليوسى ، الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، تحقيق مصطفى السقا و د: حامد عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج١ ، ط ١٩٨١م، ج٢ ، ج٣ ط ١٩٨٢م.

٦- البغدادى ، تاريخ بغداد ، مطبعة الخانجى بالقاهرة ، ط ١٩٣١

٧- ابن تيمية ، تفسير سورة الإخلاص ، دارالطباعة المحمدية ، القاهرة ، د.ت.

٨- ابن جنى ، الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٥م.

٩- الجواليقى ، شرح أدب الكاتب ، ، تقديم مصطفى صادق الرافعى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

١٠- حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، مطبعة البهية ، تركيا ط ١٩٤١م.

١١- ابن خلدون ، المقدمة ، مطبعة دار الشعب، القاهرة ، د.ت.

١٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د: إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط ١٩٧٠م

١٣- الداوودى ،طبقات المفسرين ، تحقيق على محمد عمر ، القاهرة مطبعة الاستقلال الكبرى ، الطبعة الأولى ١٣٩٣ - ١٩٧٣م.

١٤- الذهبى، تذكرة الحفاظ ،حيدر آباد الدكن ، الهند ، ط ١٣٢٣ه

١٥- رمضان عبد التواب "دكتور" لحن العامة والتطور اللغوى القاهرة ، طبعة ١٩٦٧م

١٦- ابن السكيت ، إصلاح المنطق ، تحقيق "أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٤٩م

١٧- السمعانى ، الأنساب ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى ، طبعة حجرية ، ليدن ، ط ١٩١٢م.

١٨- السيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤م.

١٩- السيوطى ،المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وآخرين مكتبة دار التراث ، القاهرة ط٣،د.ت

٢٠- الطاهر مكى "دكتور" دراسة فى مصادر الأدب ،القاهرة ، دار المعارف، ١٩٧٧م.

٢١- الطهطاوى ،مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٤م

٢٢- عبد الحميد سند الجندى "دكتور" ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، سلسلة أعلام العرب (٢٢) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت

٢٣- العسقلانى ، لسان الميزان ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ط١٠، ١٣٣٠ هـ

٢٤- ابن قاضى شهبة ، طبقات النحاة ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢٥- ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق وشرح محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، دار الجيل، بيروت ، ط٤، ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣م

٢٦- ابن قتيبة ، الأنواء ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ، الهند ط١ ، ١٩٥٦ – ١٩٧٥

٢٧- ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث ، تحقيق محمد زهرى ، المكتبة التجارية ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١٩٧٣م

٢٨- ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م

٢٩- ابن قتيبة ، تلقين المتعلم من النحو ، تحقيق د: جمال عبد العاطى مخيمر ، مطبعة وهبة حسان ، بالقاهرة ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ= ١٩٨١م.

٣٠- ابن قتيبة ، الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، مطبوع ضمن منشورات مكتبة المقديسى بالقاهرة، د.ت.

٣١- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، ط ١٩٥٠م ، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م

٣٢- ابن قتيبة ،غريب الحديث ، تحقيق د:عبدالله الجبورى ، العراق، وزراة الأوقاف ، مطبعة العانى، ط ١٣٩٧م = ١٩٧٧

٣٣- ابن قتيبة ،غريب القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة دار الكتب العربية ، بيروت ، ط ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م

٣٤- ابن قتيبة ، المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة ، مكتبة المقديسى بالقاهرة ، ط ١٩٤٩م

٣٥- ابن قتيبة ، المعانى الكبير ، مراجعة د: كرنكو ، حيدر آباد الدكن، الهند ، ط ١٣٦٨ هـ

٣٦- ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، تحقيق محب الدين الخطيب ط ١٣٤٣هـ

٣٧- القفطى ، إنباه الرواة على أبناء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٠م – ١٩٧٣م

٣٨- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ترجمة د : عبد الحميد النجار ، دار المعارف ، د.ت

٣٩- ابن كثير ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د.ت.

٤٠- ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة بولاق ، ١٣٠٠هـ-١٣٠٧ هـ

٤١- ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت

٤٢- اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، منشورات الأعلمى للمطبوعات، بيروت ، ط٢ ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠

٤٣- ياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، دار صادر بيروت ، د.ت

- **المجالات والدوريات العلمية**

- مجلة المورد البغدادى ، العدد الرابع ، سنة ١٩٧٤م

الفهرس

حقوق التأليف والطبع محفوظة للمؤلف